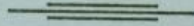
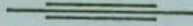


الصوفية في الإسلام



ترجمة وعلق عليه
نور الدين إسماعيل
مترجم كلية اللغة العربية
بجامعة الأزهر

الفقه
المستشرق الكبير
الدكتور
ر. أ. نيكاسون



الناشر
مكتبة النخاس بالفاخرة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٧٨٦

الترقيم الدولي : 0 - 000 - 353 - 977 I.S.B.N

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

٨٣٣٨٢٤٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤٤ : ☎

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الفهرس

٥	تصدير
٩	المقدمة
٣٩	الفصل الأول
٣٩	الطريق
٥٩	الفصل الثاني
٥٩	التجلى والجذب
٧٣	الفصل الثالث
٧٣	المعرفة
١٠١	الفصل الرابع
١٠١	الحب الإلهى
١١٧	الفصل الخامس
١١٧	الأولياء والكرامات
١٣٧	الفصل السادس
١٣٧	حال الاتحاد

المراجع
كشاف مصادر تحقيق الكتاب
كشاف الأعلام

تصدير

الصوفية رياضة وفلسفة .

رياضة للنفس ، وفطم لها عن الشهوات ، وأخذ لها بأسباب الزهد ، حتى تنصرف إلى ما هو أسمى من التراب .

وفلسفة ليست كالفلسفة التي يعرفها الناس ، فهي لا تقوم على قواعد المنطق ، ولا على أسباب العلم ، ولكنها تقوم على الهبة الربانية ، وعلى العلم اللدني ، يناله من راض نفسه وراعاها .

وقد عرفت الدنيا التصوف ، واختصمت فيه . فأنصار متعصبون ، يرون الصوفية خيراً كلها ، ويرون أعمال أهلها نبراساً ، يهتدى به في ظلام الحياة المهتدون وخصوم متعصبون ، يرمون أهل التصوف بالعظائم ، ويسمون مذهبهم بالكبائر .

والحق أننا لن نجد مذهباً في الحياة لم يتعرض لتعصب النصير المدافع ، أو الخصيم المهاجم .

وقد بدأ الإسلام ديناً سمحاً هيئاً ، يعمل المسلم فيه لندياه كأنه يعيش أبداً ، ويعمل لآخرفته كأنه يموت غداً . وآثر قوم من الرعيل الأول الزهد في طيبات الحياة الدنيا ، ورجعوا إلى الله ، في طلب ما عنده . فلما فتح الله على المسلمين الأرض ودانت لهم الدنيا ، انصب في بحر الحياة الإسلامية خليط من الثقافات المتباينة ، والوراثات المختلفة ؛ وعج بها ، حتى أضحي محيطاً صاخباً . فيه المتحضرون والبدائيون ، والفلاسفة والسذج ، ومن ورثوا أفكار الفرس ، والأغريق والرومان ، ومن دانوا بالبوذية ؛ وعبدوا الملوك . انتظم الإسلام كل أولئك وألف منهم خليطاً عجيباً ، كان نتاجه في الحياة هو مجموع الحضارة الإسلامية .

وقد تلفت الحفيظون على التراث الأصيل ، فهالهم هذا السيل المنهمر ، فوقفوا في وجهه ، يردون الناس إلى المنبع الأول . ومن هنا قام النزاع بين الفرق المختلفة ، وادّعت كل طائفة أن الحق عندها لا عند غيرها .

وكان الصوفية من بين هذا الخضم عنصرًا فيه ، تأثر به جذبا ودفعا . وكان له خلصاؤه ، ونصراؤه ، وخصومه وعائبوه . وقلما يقع للباحث في

التصوف الإسلامى أن يجد بحثًا خلا عن التعصب ، أو اتسم بسمة الإنصاف الخالص .

ولا ننكر أن التصوف ، شأن كل مذهب ، كان فى أهله من يؤاخذ على تفريطه أو إفراطه ، ولكن متى كان فى شرعة الحق أن يؤخذ الجار بظلم الجار ، ويتحمل الإسلام ، فى جوهره الصافى ، أخطاء المسلمين ؟!

وهذا الكتاب الذى بين يدى القراء ثمرة من ثمار البحث الموضوعى الشامل ، دفعنى إلى إخراجه فى العربية ، شدة حاجتها إلى الدراسات الشاملة ، والمدخل العامة فى التصوف . ولا أدعى أن الكتاب قد خلا عن الأخطاء ، فذلك للمؤلف وحده ، ولكنى لم أتعب مافيه إلا حين تعرض المؤلف لكتاب الله ، فقد بينت وجه الشطط فيما ذهب إليه .

وثمة شئ آخر وهو أن المؤلف قد ساق البحث مجردًا ، ولم يذيله ، إلا فى النادر بالمصادر التى رجع إليها ، فالتزمت أن أذكر للقراء موضع ذلك من الكتب العربية .

والأستاذ المؤلف الدكتور نيكلسون غنى عن التعريف . قلما يجهل اسمه باحث فى التصوف الإسلامى . فقد نشأ فى بيت علم . وكان والده الأستاذ الدكتور هنرى نيكلسون أستاذ التاريخ الطبيعى بجامعة أبردين . ويبدو أن ابنه « رينولد » كان مولعًا منذ صدر شبابه بالمشريات . فقد نال كثيرًا من الجوائز ، فى جامعتى أبردين وكمبردج ، نتيجة لتفوقه فى دراسته ، وفى اللغات الشرقية خاصة .

وقد تتلمذ فى العربية على الأستاذ روبرتسن سميث ، كما درسها فى ستراسبورج وليدن .

فلما تخرج من جامعة كمبردج سنة ١٨٩٣ اشتغل بتدريس الفارسية فيها . وفى جامعة لندن .

ولا يعرف تاريخ الاستشراق إلا قلة من الباحثين وهبوا حياتهم للتصوف دون غيره . ومن هؤلاء ، بل أول هؤلاء ؛ هو الأستاذ رينولد ألن نيكلسون . فلم تمض خمسة أعوام ، على تخرجه ، حتى أخرج للناس : « مختارات من ديوانى شمسى تبريزى » سنة ١٨٩٨ م . وظل بعد ذلك ، يوالى إصدار

الكتب فى التصوف فينشر فى العربية والفارسية ، المصادر المخطوطة ويحققها . فنشر فى الفارسية :

- ١ - تذكرة الأولياء ، للعطار . نشرها ما بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩٠٧
- ٢ - فارس نامه ، بالاشتراك مع لسترانج . سنة ١٩٠١
- ٣ - المشوى ، لجلال الدين الرومى . مع ترجمة انجليزية له ، أصدره بين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٣٠

ونشر فى العربية :

- ١ - كتاب اللمع ، للسراج ، أخرجه وحققه ، سنة ١٩١٨ م
- ٢ - ترجمان الأشواق ، لابن عربى ، مع ترجمة وتعليق ، أخرجه سنة ١٩١١

وقد ترجم بعض الأصول الفارسية إلى الانجليزية مثل :

- ١ - كشف المحجوب ، للهجویری ، ترجمه سنة ١٩١١
 - ٢ - أسرار النفس ، لأقبال . ترجمه سنة ١٩٢٠
- عدا ما ألف من الكتب ، وأنشأ من المقالات فى صحف المستشرقين .

واسم هذا الكتاب - الذى بين یدى القارئ - إن التزمنا الترجمة الحرفية - « الصوفية المسلمون » ، ولكنى آثرت أن أسمية « الصوفية فى الإسلام » . ذلك لأن التسمية الأولى ، يفهم منها القارئ أن الكتاب من كتب التراجم ، وليس كذلك ، بل هو بحث عن التصوف والصوفية عامة ، من غير تعرض إلى ترجمة أحد منهم .

وأحب أن أقدم الشاء لكل من عاون على إخراج هذا الكتاب .
والله المسئول أن يهدينا طريق الرشاد .

نور الدين شريه

القاهرة : } ربيع الأول سنة ١٣٧١ هـ
} ديسمبر سنة ١٩٥١ م

مقدمة

يبين عنوان هذا الكتاب بياناً كافياً ؛ السبب الذي من أجله احتوته سلسلة^(١) تبسط الجهود والمخاطر ، التي يلقاها أفراد الباحثين وجماعاتهم ، في الكشف عن الحقيقة .

والصوفية - فلسفة الإسلام الدينية - قد وصفت ، في أقدم تعريف موجود ، بأنها : « الأخذ بالحقائق »^(٢) . والصوفية المسلمون مولعون بأن يسموا أنفسهم « أهل الحق »^(٣) .

وأنا حين أحاول أن أعرض أصول مذاهبهم ، على هذا الوجه من الرأي ، سوف أعتمد - إلى حد ما - على ما جمعته خلال العشرين عاماً السالفة ، من مصادر لتاريخ جامع للتصوف الإسلامي . والتصوف الإسلامي موضوع واسع الأطراف ، متعدد الجوانب ، يحتاج إلى المجلدات الضخمة للكشف عن حقيقته في إنصاف .

وليس في طوقى هنا ، إلا أن أرسم هيكلًا عامًا لبعض القواعد والطرق والخصائص المميزة للحياة الروحية ، كما عاشها مسلمو كل طائفة ومرتبة ، منذ القرن الثامن الميلادي - الأول الهجري - إلى وقتنا الحاضر .

(١) نشر أصل الكتاب في : سلسلة البحث « quest Series » سنة ١٩١٤

(٢) النص بتمامه : « قال معروف الكرخي : التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق » .

القشيري : الرسالة ص ١٦٥ س ٢٦ ، ٢٧

(٣) الحق لفظ كثيراً ما يدور على ألسنة الصوفية حين يشيرون إلى الله تعالى .

يقول أبو نصر السراج الطوسي : « الحق هو الله عز وجل ، قال الله تعالى :

﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [سورة النور ، الآية ٢٥]

اللمع ص ٣٣٦ س ١١

وإن الدروب التي سلكوها لشاقة ؛ وإن ماتؤدى إليه من النجاد لمظلم محير ، قد انعدمت فيه الصُّوى . ومع ذلك فإن لم نأمل أن نصحب السُّفر إلى غاية رحلتهم ، فإن معرفة نجمعها عن وسطهم الدينى ، وتاريخهم الروحى ، لابد أن تساعدنا على فهم الرياضات النفسية الغريبة ، التي كتبوا عنها .

ومن هنا أود قبل كل شئ ، أن أقدم ملاحظات قليلة ؛ عن الصوفية ونموها التاريخي ، وصلتها بالإسلام ، وصفتها العامة .

وليسيت هذه الأمور نافعة لدارس « علم الأديان المقارن » وحده ؛ بل إن شيئاً من العلم بها لاغنى عنه ألّبتة لدارس الصوفية نفسها دراسة جد . ولقد يقال إن الرياضات الصوفية جميعها تلتقى ، فى النهاية ، عند نقطة واحدة . وذلك حق . بيد أن هذه « النقطة » عينها تتخذ وجوهاً واسعة الاختلاف ، تبعاً لديانة الصوفى . وسلالته ، ومزاجه . كما أن الخطوط التي تجتمع حول هذه « النقطة » تتباين تبايناً عظيماً لا حد لتنوعه .

والأنواع الكبرى من التصوف - وإن كان بينها شئ من الشبه فى العموم - كل منها مميز بخصائص ، نتجت عن الظروف التي منها نشأ ، وفيها ترعرع . وكما أن التصوف المسيحى لايمكن أن يفهم دون الإشارة إلى المسيحية ، فكذلك التصوف الإسلامى ، لابد أن يبحث متصلاً بالنمو الخارجى والداخلى للإسلام .

وكلمة (Mystic) التي انحدرت من الديانة الأغريقية إلى الآداب الأوربية ، يقابلها فى العربية ، والفارسية ، والتركية - لغات الإسلام الثلاث الرئيسية - كلمة « صوفى » . واللفظان على كل حال ليسا مترادفين تماماً . لأن اللفظة « الصوفى » مدلول دينى خاص . وقد قيدها الاستعمال بالصوفية الذين يدينون الدين الإسلامى ^(١) والكلمة العربية ، وإن اكتسبت على مدى

(١) يقول أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري : « هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال رجل صوفى ، وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف ، وللجماعة المتصوفة » .

الأيام مدلول الكلمة الأغريقية الواسع - شفاه مقفلة بالأسرار القدسية ، وعيون مغمضة على النشوة الحالمة - إلا أن مدلولها كان متواضعًا يوم جرت على الألسنة لأول مرة حوالى نهاية القرن الثانى الهجرى ^(١) (حوالى سنة ٨٠٠ م) .

واشتقاقها لا يزال - حتى الآن - موضع خلاف ^(٢) . فأكثر الصوفية يشتقونها - غير عابئين بقواعد التصريف والاشتقاق - من (الصفاء) ^(٣) . ومعنى هذا أن يكون الصوفى هو « الصافى القلب » ، أو هو « المصطفى » . وبعض الباحثين من الأوربيين يردّها إلى الكلمة الأغريقية « سوفوس » بمعنى « ثيو صوفى » .

ولكن « نولدكه Nöldeke بين فى يقين ، فى مقال نشر سنة ١٨٩٤ أن الكلمة مشتقة من « الصوف » ^(٤) . وأنها كانت فى الأصل - موضوعة لزهاد

(١) يقول القشيري : « المسلمون بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم - فى عصرهم - بتسمية علم ، سوى صحبة رسول الله ﷺ فقليل لهم الصحابة . ولما أدرك أهل العصر الثانى ، سمى من صحب الصحابة التابعين ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين . ثم اختلف الناس ، وتباينت المراتب فقليل لخواص الناس ، ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ، الزهاد والعباد . ثم ظهرت البدع ، وحصل التداعى بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادا . فانفرد خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة ، باسم التصوف . واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة » الرسالة القشيرية ص ٩ س ٢٠ - ٢٨

(٢) يقول القشيري : « ليس يشهد لهذا الاسم - من حيث العربية - قياس ولا اشتقاق . وإلا ظهر أنه كاللقب » .

الرسالة القشيرية ص ١٦٤ س ٢٩ ، ٣٠

(٣) يقول القشيري : « من قال إنه من الصفاء » ، فاشتقاق « الصوفى » من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة » .

الرسالة القشيرية ص ١٦٥ س ٢ ، ٣

(٤) يقول القشيري : « أما قول من قال إنه من « الصوف » ، و « تصوف » إذا لبس الصوف ، كما يقال : « تَقَمَّص » إذا لبس القميص ، فذلك وجه . ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف » .

الرسالة القشيرية ص ١٦٤ س ٣٠ ، ٣١

المسلمين ، الذين تشبهوا برهبان النصارى ، فى ارتدائهم غليظ الصوف ، دليل ندمهم على ما أسلفوا ، وعلى اطراحهم متاع الحياة الدنيا ^(١) .

* * *

والصوفية الأولون كانوا - فى الحقيقة - زهادًا وادعين ، أكثر منهم متصوفة فإدراكهم المستولى عليهم للخطيئة ، تصحبه الرهبة من يوم القيامة وعذاب النار ؛ تلك الرهبة التى ليس فى طوقنا أن نتحققها ، والتى صوّرت فى القرآن تصويرًا حيًا ، دفعتهم إلى أن يجدوا فى الهرب من الدنيا مخلصًا لهم . ثم إن القرآن ينذرهم - من جهة أخرى - أن النجاة تتوقف أساسًا على مشيئة الله الخفية ؛ التى تهدى الصالحين سواء السبيل ، وتضل الظالمين عن القصد القويم . وأن حظهم قد رقم فى اللوح الخالد ، لوح عناية الله ، لا يستطيع شئ له تبديلا ^(٢) . فيجب أن يعلم أنه إذا قدر لهم أن ينجيهم صومهم وصلاتهم ، وما يأتون من الأعمال الصالحة ، فهم لا بد ناجون ^(٣) .

واعتماد كهذا ، لا بد أن ينتهى إلى التأمل فى الله ، والخضوع المطلق للمشيئة الإلهية . وتلك ميزة من ميزات التصوف فى أقدم صوره .

(١) قال أبو سليمان الداراني : « الصوف علم من أعلام الزهد . فلا ينبغي أن يلبس صوفًا بثلاثة دراهم ، وفى قلبه رغبة خمسة دراهم » .

الرسالة القشيرية ص ٧١ س ٢ ، ٣

(٢) قال أبو العباس السيارى : « كيف السبيل إلى ترك ذنب كان عليك فى اللوح المحفوظ محفوظًا ، وإلى صرف قضاء كان العبد به مربوطًا » .

أبو عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية ١١٤ ظ مخطوط .

(٣) قال أبو سعيد الخراز : « من ظن أنه يبذل الجهد يصل إلى مطلوبه فمتعن . ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فمتمن » .

الرسالة القشيرية ص ٦ ص ١٣ - ١٥

وقال أبو محمد الجيرى : « من توهم أن عمله يؤصله إلى مأموله الأعلى والأدنى فقد ضل عن طريقه . لأن النبى ﷺ قال : (لن ينجى أحدا منكم عمله) فمالا ينجى من المخوف كيف يبلغ إلى المأمول ومن صح اعتماده على فضل الله ، فذلك الذى يرجى له الوصول » .

السلمى : طبقات الصوفية ٦٧ - و مخطوط .

وقد كان المعين الأصل للحياة الدينية الإسلامية خلال القرن الثامن الميلادي - الأول الهجري - هو الخوف ؛ الخوف من الله . والخوف من جهنم ، والخوف من الموت ، والخوف من الخطيئة . على أن الدافع المناقض له - الحب - كان قد بدأ يظهر تأثيره . وجعل من ولية الله « رابعة » - على الأقل - مثلاً ملحوظاً لإنكار الذات الصوفي الحق .

وإلى هنا لم يكن ثمة فرق كبير بين الصوفية . وبين المتشددین من أهل السنة إلا أن الصوفية يجعلون لبعض آيات القرآن أهمية خاصة ، ويصرفون إليها همهم ، دون غيرها من الآيات ؛ التي يعتبرها كثير من المسلمين متساوية الأهمية ^(١) .

ولابد كذلك من القول بأن حركة الزهد استلهمت المثل العليا المسيحية ، وكانت شديدة التعارض مع روح الإسلام المرححة النشيطة . والنبي في حديث مشهور ^(٢) ، قد رفض تقشفات الرهبانية ، وأمر قومه أن يجبسوا أنفسهم على الجهاد وجعل من نفسه - كما هو معروف - أصدق

(١) يشرح أبو نصر السراج هذه الفكرة فيقول : « وللصوفية تخصيص من طبقات أهل العلم ، باستعمال آيات من كتاب الله تعالى متلوة ، وأخبار عن رسول الله ﷺ مروية . ما نسختها آية ، وما رفع حكمها خبر ولا أثر ، يدعو ذلك إلى مكارم الأخلاق ، ويحث على معاني الأحوال ، وفضائل الأعمال ، وينبئ عن مقامات عالية في الدين ... وذلك موجود في دواوين العلماء والفقهاء وليس لهم في ذلك تفقه ولا استنباط ، كتفقههم في سائر العلوم ، وليس لغير الصوفية - من أولى العلم ، القائمين بالقسط - في ذلك نصيب ، غير الإقرار والإيمان بأنه حق . وذلك مثل حقائق التوبة ، وصفاتها ، ودرجات التائبين ، وحقائقهم ، ودقائق الورع ، وأحوال الورعين ، وطبقات المتوكلين ، ومقامات الراغبين ، ودرجات الصابرين » .

اللمع ص ١٣ ، ١٤

(٢) الزهري عن عروة قال « دخلت امرأة عثمان بن مظعون - أحسب اسمها خولة بنت حكيم - على عائشة ، وهي باذة الهيئة . فسألتها : ما شأنك ؟! فقالت : زوجي يقوم الليل ويصوم النهار ! فدخل النبي ﷺ ، فذكرت عائشة ذلك له ، فلقى رسول الله ﷺ عثمان فقال : يا عثمان ! إن الرهبانية لم تكتب علينا . أفما لك في أسوة ؟! فوالله إني أخشاكم لله وأحفظكم لحدوده » .

ابن حنبل : المسند ج ٦ ص ٢٢٦

الأمثلة على تحبيذ الزواج . وتحريمه للبتولة ، كان له أثره ، إلا أن فتح خلفائه
لفارس ، وسوريا ، ومصر ؛ قد وصل المسلمين بأفكار عدلت نظرتهم إلى
الحياة وإلى الدين تعديلا عميقا .

والقارئون للقرآن ، من الأوربيين ، لاتعوزهم الدهشة من اضطراب
مؤلفه^(١) وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات ، وهو نفسه لم يكن

(١) تتضمن دعوى الأستاذ الخاطئة شعبا أربع :

أولا : يقرر أن القرآن مؤلفه مضطرب ، غير متماسك في معالجة كبار المشكلات .

ثانيا : أن المؤلف نفسه لم يكن مدركا وجود هذا الاضطراب والتعارض .

ثالثا : أن إيمان صحابة الرسول الساذج قد دفعهم إلى الإيمان بأن القرآن كلام الله .

رابعا : أن الفرق الإسلامية ، من أمثال المرجئة والقدرية والمعتزلة والأشعرية إنما قامت
بسبب هذا التعارض الذى يحويه القرآن .

وبالبحث المنصف ، بقليل من التأمل ، لا يسعه إلا أن يرى الشطط الفكرى ، والخطأ
التاريخى ، الذى وقع فيه الأستاذ نيكلسون .

فمؤلف القرآن عنده هو محمد - صلوات الله عليه - وليس القرآن كتابا أنزله الله على
رسوله . وهذه دعوى المستشرقين عامة ، سبقهم إليها كفار قريش أنفسهم . واجهوا بها رسول
الله حين دعاهم إلى كتاب الله ، فقالوا عنه إنه : ﴿ أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَنَبَهَا فَهِيَ تُمَلِّ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [سورة الفرقان : الآية ٥] بل ذهبوا إلى أنه يستملئها رجلا غيره ،
فكذبهم الله بقوله : ﴿ لَسَاثُ الَّذِي يُلْحِذُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيٌّ وَهَذَا لِسَانُ عَكْرِتٍ
مُيَبِّتٍ ﴾ [النحل : الآية ١٠٣] وتحدهم الله أن يأتوا بمثله فعجزوا ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾
[الإسراء : الآية ٨٨] . ثم زاد فى تحديهم فطالبهم أن يأتوا بعشر سور مثله : ﴿ فَأْتُوا
بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود :
الآية ١٣] . وبالعناية المبالغة فى تحديهم فطالبهم أن يأتوا بسورة فعجزوا : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : الآية ٣٨] وقام هذا
التحدى - بعد انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى - مدى هذه القرون الطوال . وابتلى
الإسلام بفرق الزنادقة والملاحدة ، وقد حاولوا الكيد له بكل وسيلة ، ولكنهم صغروا أمام هذا
التحدى القائم فى وجوههم من الكتاب العزيز .

=

على علم بهذه المتعارضات ، ولم تكن حجر عثرة في سبيل صحابته ،

= وعجيب أمر المستشرقين ! فالذين يقرأون ما كتبوا عن محمد صلوات الله عليه - حتى من يدعون الإنصاف منهم - ينتهون إلى رأى عجب فيه ، هو أن محمداً من أوساط الناس . لا يتميز - عندهم - بشئ من العبقريّة الخالقة ، ولا الفكر المستنير !! فكيف استطاع هذا الرجل العادى أن يؤلف هذا الكتاب ، الذى دانت له الملايين من البشر ، والذى انطوى على نظام شامل لحياتهم ، يجمع أصولها التى لا ينبغى أن يختلفوا عليها ، ويدع فروعها لعقولهم ، واجتهادهم ، وسنة نبهم ؟! كلتا الدعويين تناقض الأخرى .

وثمة شئ آخر ثبت أن القرآن من عند الله ، وإن لم يكن المقام مقام استقصاء للأدلة على ذلك ، أننا قد ورثنا عن رسول الله ، كتاب ربنا ، وسنة نبينا . ومن يقرأ السنة النبوية ، والكتاب الكريم ، يرى الفرق واضحاً بينهما فى كل شئ : فى أسلوب التعبير ، وفى الموضوعات اللاتى يعالجها والطريقة التى يعالجها بها . فلو كان الكتاب من عند محمد ﷺ ، لكان والسنة صنوين - فى التعبير على الأقل - وشتان ما بينهما . القرآن كتاب الله ، ما هو بقول بشر ، ولا سحر ساحر ، وإن تغام عن هذه الحقيقة الواضحة المتعاملون .

وليس فى القرآن تضارب ولا تناقض ، بل ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّخْتَفِتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : الآية ٧] . وإذا كان السادة المستشرقون لم يتيسر لهم فهم هذه (المتشابهات) وعدوها (متضاربات) فليس ذلك ذنب القرآن ، ولكنه ذنب معرفتهم القاصرة ، باللغة العربية خاصة ، والتفكير الإسلامى عامة . وأنت مهما جهدت أن تذوق اللغة كما يتذوقها أبناءها فلن تستطيع . فقد يقرأ القارئ العربى آية من الكتاب العزيز فتأخذه روعتها ، أو يبت شعر فينتصب واقفاً . ولكنه لا يجد هذه الروعة حين يقرأ لشكسبير أو ملتون . وأهل كل لغة أعرف بخفاياها .

والقرآن ليس كتاباً ألف فى موضوع واحد حتى يلتزم فيه ما يلتزم فى الكتب الموضوعية على هذا النحو ، من المقدمات والتمهيدات ، ثم النتائج والخواتيم . ولكنه كتاب شامل لحياة المسلمين ، وضع لهم كافة . يجد فيه الفيلسوف زاده ، والصوفى روحانيته ، والمشرع أصول قوانينه ، والأخلاقى قواعد سلوكه ، واللغوى فرائد بيانه ومن هنا تنوع ما فيه من قصص ، وحكم وتشريع ، وتاريخ . وكان على هذا كله متناسقاً لا اختلاف فيه ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : الآية ٨٢] .

والذين لهم أقل بصر بالدراسات الإسلامية يعلمون أن الجماعة الإسلامية ، قد ابتليت - بعد وفاة الرسول - بالاختلاف على من يلى أمر المسلمين ، إلى أن فض الاختلاف ظاهراً بولاية أبى بكر رضى الله عنه ، وأن السفينة الإسلامية قد ارتطمت بصخرة مقتل عثمان ، وقيام المطالبين بدمه فى وجه على رضى الله عنه ، وأن الحياة الإسلامية قد تشعبت واتسعت ، بعوامل الفتح ، والوراثات الفكرية المختلفة ، التى انصبت فى المحيط العربى الإسلامى ، =

الذين تقبل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله . ولكن الصدع من هنا وجد . وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار . من هنا قامت « المرجئة » الذين يضعون الإيمان فوق الأعمال ، ويلحون على حسن السيرة والحب في الله ؛ و « القدرية » الذين يؤكدون أن الإنسان مسئول عن أعماله ؛ و « الجبرية » الذين ينكرون ذلك ؛ و « المعتزلة » الذين أنشأوا « علم الكلام » مؤسساً على قواعد العقل ، وأنكروا صفات الله ، لأنها لا تتفق ووحديته ، والقضاء الأزلي ، لأنه لا يتفق وعدله ؛ ثم « الأشاعرة » أخيراً - متكلمو الإسلام الجدلون - الذين صاغوا النظام الديني والغيبي (الميتافيزيقي) الذي يقوم عليه مذهب أهل السنة في الوقت الحاضر .

كل هذه النظريات الفلسفية - وقد تأثرت بلاهوت الإغريق وفلسفتهم - كان لها رد فعل قوى . ففي مطلع القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي - نلمح الأدلة البينة للخميرة الجديدة ، تضطرب في أثنائه . فلم يقف الصوفية عند حد إعنات أجسامهم ، والفخر بفقرهم ؛ بل بدأوا يرون في التقشف الخطوة الأولى في رحلة طويلة ، والإعداد الأول لحياة روحية أرحب آفاقاً من تلك التي كان يستطيع أن يتصورها الزاهد الخالص . ولعل طبيعة التغير أن تستبين باقتطاف جمل قليلة : انحدرت إلينا من صوفية هذا العهد :

١ - قيل لمعروف ^(١) : « أخبرنا عن المحبة . أى شئ هي ؟ » قال « ياأخى ! ليس المحبة من تعليم الناس . المحبة من تعليم الحبيب » ^(٢) .

= فقامت هذه الفرق المختلفة . وليس هذا موضع استقصاء أسباب قيامها . ولكن الذى لا ريب فيه أن القرآن لم يكن سبباً مباشراً لقيام هذه الفرق .

ولقد وددت لو أن الذين يعالجون الموضوعات الإسلامية من المستشرقين يلتزمون الإنصاف فى أحكامهم . ولا يندفعون وراء عواطفهم ، إنما يبتغون الحق لذات الحق ! ولكن هذه منزلة لا يصل إليها إلا القلة المختارة من المفكرين .

(١) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي . من موالى على بن موسى الرضا كان والده نصرانيين ، ثم أنه أسلم على يد على بن موسى . مات سنة مائتين ، وقيل سنة إحدى ومائتين . وكان أستاذ سرى السقطي .

الرسالة القشيرية ص ١٢ س ١ - ٨

(٢) المكي : قوت القلوب ج ٣ ص ١٠٠ س ١٤ ، ١٥

السلمى : طبقات الصوفية : ورقة ١٨

٢ - « لا يخلو بشر عن شهوات هذه الدنيا ، إلا من كان في قلبه نور يديم اشتغاله بالحياة الآخرة » .

٣ - إذا انفتحت عين بصيرة العارف ، نامت عين بصره ، فلا يرى إلا الله !

٤ - قال ذو النون المصري ^(١) : « لو أن الخلق عرفوا ذل أهل المعرفة ، في أنفسهم لحتوا التراب على رؤوسهم وفي وجوههم . فقال رجل كان حاضرا في المجلس : « رجل مؤيد ! » . فذكرت لطاهر المقدسي ^(٢) ، فقال : « سقى الله أبا الفيض ! حقا ما قال ، ولكني أقول : لو أبدى الله نور المعرفة للزاهدين والعابدين ، والمحتجبين عنه بالأحوال لا حترقوا واضمحلوا ، وتلاشوا حتى كأن لم يكونوا » ^(٣) .

٥ - كان أبو سليمان ^(٤) يقول : « المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام » ^(٥) .

٦ - لا يرى الله شيء ويموت ، كما لا يرى الله شيء ويبقى . لأن الله أزلي خالد . فمن رآه فقد خلد .

٧ - قال ذو النون المصري : « إلهي ! ما أصغيت إلى صوت حيوان ،

(١) أبو الفيض ، ثوبان بن إبراهيم ، ذو النون المصري . كان أبوه نوبيا وكان رجلا نحيفا ، تعلوه حمرة ، ليس بأبيض اللحية . توفي سنة خمس وأربعين ومائتين . ودفن بالقاهرة .

الرسالة القشيرية ص ١٠ س ٢٦ - ٣٠

(٢) طاهر المقدسي من جلة مشايخ الشام وقدمائهم . رأى ذا النون المصري وصحب يحيى الجلاء ، وكان عالما ، وهو الذي كان يسميه الشبلي « حبر أهل الشام » . السلمي . طبقات الصوفية : ورقة ٦٩ ظ .

(٣) أبو نعيم : الحلية ج ٩ ص ٣٦١ س ٢٠ - ٢٥

(٤) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني الزاهد المشهور . روى الحديث عن الربيع بن صبيح ، وأهل العراق . وروى عنه صاحبه أحمد بن أبي الحواري والقاسم الجوعى وغيرهما . وهو من أهل داريا ، قرية من غوطة دمشق . وينسب إليها أيضا بغير نون ، فيقال : داري وداراني . توفي سنة خمس عشرة ومائتين . ابن الأثير : اللباب : ج ١ ص ٤٠٣

الرسالة القشيرية : ص ١٩ س ٢١ - ٢٣

(٥) المكي : قوت القلوب ج ٢ ص ١١ س ١٦

ولا إلى حفيف شجر ، ولا خير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقة رعد ؛ إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شئ » ^(١) .

٨ - وقال ذو النون : « إلهي ! أدعوك في الملاء كما تدعى الأرباب ، وأدعوك في الخلاء كما تدعى الأحباب . أقول في الملاء : « يا إلهي ! » وأقول في الخلاء : « يا حبيبي » ^(٢) .

هذه الأفكار : النور ، والمعرفة ، والحب ؛ تكون أصول الصوفية الجديدة وسأجهد - في الفصول القادمة - أن أبين كيف نمت . وقد انتهت هذه الأفكار أخيرا إلى القول بوحدة الوجود دينا . يدع عبادة الإله « الواحد المنزه » إلى عبادة « الموجود الحق الأحد » الذي يوجد في كل مكان ويصرف كل شئ ، والذي يحل عرشه قلب الإنسان ، لا السموات العلى .

ومن الخير - قبل أن نسير قدما - أن نجيب على سؤال ، لعل القارئ أن يسأله نفسه : « من أين اجتلب مسلمو القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي - هذا المذهب ؟ » .

برهن البحث الحديث ، على أن أصل الصوفية لا يمكن أن يرد إلى سبب واحد محدود . ومن هنا لم يرتض باحث منصف ، هذه التعميمات الجارفة ؛ من أمثال : أنها رد فعل العقل الآري ، تجاه الدين السامي الفاتح . أو أنها ليست إلا نتاجا خالصا للفكر الفارسي ، أو الهندي .

وأمثال هذه الأحكام - وإن يكن لها نصيب من الصحة - تغفل البديهة التي تحتم لإقامة رابطة تاريخية بين (أ) وبين (ب) أنه لا يكفي أن تستدل بشبه أحدهما للآخر ، من غير أن تبين في الوقت عينه :

- ١ - أن صلة (ب) الفعلية مع (أ) بحيث تجعل النسبة المدعاة جائزة .
 - ٢ - أن الفرض المحتمل متفق مع جميع الحقائق المؤكدة المدعمة .
- وهذه الآراء ، التي ذكرت ، لاتقوم لهذه الشروط . فإن لم تكن الصوفية

(١) أبو نعيم : حلية الأولياء : ج ٩ ص ٣٤٢ س ١٣ - ١٥

(٢) أبو نعيم : الحلية : ج ٩ ص ٣٣٢ س ١٨ ، ١٩

شيئاً غير أنها ثورة الروح الآرية ، فكيف نفسر الحقيقة ، التي لا سبيل إلى الطعن فيها ، من أن بعض كبار رواد التصوف الإسلامى من أهل سوريا ومصر؟ وأنهم عرب الجنس؟

وكذلك يغفل المتحمسون للأصل البوذى ، أو الفيدى ، عن أن التيار الرئيسى ، للتأثير الهندى على الحضارة الإسلامية ، يرجع إلى عهد متأخر ؛ مع أن علم الكلام ، والفلسفة ، والعلم فى الإسلام ، قد آتت بواكيرها الغضة ، فوق تربة تشربت الحضارة الهلنستية .

والحق أن الصوفية شئ معقد . ومن هنا لم يكن فى الطوق أن يقدم جواب بسيط فى السؤال عن أصلها . ولعلنا أن نقرب من الجواب إذا حددنا القوى والحركات المختلفة ، التى صاغت الصوفية ، وحددت الاتجاه الذى صارت إليه فى عهود نموها الباكرة .

ولنعتبر أولاً أهم التأثيرات الخارجية ، تلك التأثيرات غير الإسلامية ، وأهمها :

١ - المسيحية

من الجلى أن ميول الزهد والتأمل ، التى أشرت إليها ، كانت على وفاق مع الفكرة المسيحية ، ومنها استمدت أسباب قوتها . فكثير من نصوص الإنجيل ، ومن الأقوال المنسوبة إلى للمسيح ، مقتبس فى أقدم تراجم الصوفية ^(١) . والرهابة المسيحيون كثيراً ما يظهرون فى مقام المعلمين ، يولون النصح والتسديد لزهاد مسلمين متقلبين . وقد رأينا أن ثوب الصوف - الذى منه جاء الصوفى - مسيحى الأصل ، ونذور الصوم عن الكلام ، والذكر ، ورياضات الزهد الأخرى ، لعلها أن ترد إلى هذا الأصل نفسه . وفيما يتصل بمذهب « الحب الإلهى » ندع هذه المقتطفات تترجم عن نفسها :

١ - « روى أن المسيح مر على طائفة من العباد ، وقد احترقوا من

(١) انظر : الرسالة القشيرية ص ٦٦ س ١٠ - ١٥ ، ص ٢٧ - ٣٠ ، ص ٨١ ،

ص ٨٦ س ١ ، ٢ وكذلك : السلمى ورقه ٦٦ ظ السطور الأخيرة . وغير ذلك .

العبادة ، كأنهم الشنان البالية ، فقال : ما أنتم ؟ قالوا : « نحن عباد » ، قال : « لأى شئ تعبدتم ؟ » ، قالوا : « خوفنا من النار فخفنا منها » ؛ فقال : « حق على الله أن يؤمنكم ماخفتهم » . ثم جاوزهم . فمر بآخرين أشد عبادة ، فقال : « لأى شئ تعبدتم ؟ » فقالوا : « شوقنا إلى الجنان ، وما أعد فيها لأولياؤه ، فنحن نرجو ذلك » فقال : « حق على الله أن يعطيكم مارجوتم » . ثم جاوزهم فمر بآخرين يتعبدون ، فقال : « ما أنتم ؟ » قالوا : « نحن المحبون لله ، لم نعبده خوفا من ناره ، ولا شوقا إلى جنته ، ولكن حبا له وتعظيما لجلاله » . فقال : « أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم بين أظهرهم . وفى لفظ آخر أنه قال للأولين :

« مخلوقا خفتهم ، ومخلوقا أحببتهم » . وقال لهؤلاء : « أنتم المقربون » ^(١) .

٢ - حدث أحمد بن أبى الحوارى ^(٢) قال : « قلت لراهب : « أى شئ أقوى ما تجدونه فى كتبكم ؟ » . قال : « ما نجد شيئا أقوى من أن تجعل حيلك وقوتك كلها فى محبة الخالق » ^(٣) .

٣ - وسأل بعض الزهاد راهبا آخر : « متى يكون الرجل أكثر إمعانا فى العبادة ؟ » فأجابته : « حين يملك الحب قلبه ، فليس له عندئذ من مسرة ولا رغبة : إلا فى العبادة المتصلة » .

وتأثير المسيحية - من خلال أحبارها ، ورهبانها وفرقها الخوارج ، من أمثال فرقة « المصلين » ^(٤) Euchitae - ذو وجهين . زهدى ، وصوفى .

(١) أبو طالب المكي : قوت القلوب . ج ٣ ص ٨٢ س ١٣ - ١٩ . وكذلك : حلية الأولياء ج ١٠ ص ٧ س ٢٠ - ٢٥ ، ص ٨ س ١ - ٤

(٢) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبى الحوارى الدمشقى ، من أهل دمشق ، يروى عن وكيع ابن الجراح الكتب ، وعن الوليد بن مسلم ... وصحب أبا سليمان الداراني وحفظ عنه الرقائق .

الأنساب للسمعاني ص ١٨٠

(٣) أبو نعيم : حلية الأولياء ج ١٠ ص ٨ س ٧ - ٩

(٤) « المصلون Euchitae » فرقة مسيحية غالية ، من الهرطقة ، يقوم مذهبها على أن الصلاة المتصلة يمكن أن تجتث أصل الخطيئة ، وتبلغ بالإنسان حد الكمال الروحي ، والتحقق . وقد قاموا بنشر مذهبهم ، ابتداء من النصف الثانى للقرن الرابع الميلادى ، حتى =

والتصوف الشرقي المسيحي : كان - على أى وجه - يحوى عنصراً
وثنياً . فقد تشرب منذ بعيد أفكار أفلوطين^(١) ، واصطنع لغة المدرسة
الأفلاطونية الحديثة .

* * *

= القرن السادس ، بل إن تأثيرهم ليمتد إلى ما بعد ذلك . ومن الصعب أن نكوّن فكرة واضحة
عن آرائهم . لأن ما بين أيدينا عنهم هو رأى من يخالفهم فيهم . فأما انتاجهم فشأنه شأن انتاج
غيرهم من فرق الخوارج والهرطقة ، قد أبيد . وهم يعتقدون أن كل إنسان قد وكل به شيطان
يغويه على الوقوع فى الإثم . وليس التعميد بكاف فى طرد هذا الشيطان ، إنما يجتث التعميد
هذا الإثم من ظاهره ويدع جذوره غائرة فى أعماق النفس . والدواء الشافى لذلك هو الصلاة
المتصلة ، حتى يحس الإنسان إحساساً قوياً أن شيطانه فارقه ، وقد تشاهد حينئذ الروح القدس
داخلة إلى جسم الإنسان على هيئة نار غير مؤذية ، بينما تشاهد روح الشر عندئذ خارجة من
فمه على صورة حبة فى أكمامها . ثم يتبع ذلك وقت السعادة حين تحس الروح اتحادها مع
عريسها ، كما تحس الزوج نشوة العناق مع زوجها حين يبنى بها ، وإذا فالمصلى يعتقد أنه
مشارك فى الطبيعة الإلهية ، وهم يدعون أن لهم انكشافات وكرامات لا تيسر لعامة الناس .
وكانوا يرقصون ليطنوا بأقدامهم شياطينهم التى كانت تترأى لهم . ويدعون لأنفسهم علم
الغيب ، والكشف عما فى نفوس الناس . كما كانوا لا يبالون بوسائل الكنيسة العادية فى
مقاومة الخطيئة من نحو رياضة الرهينة و « العشاء الربانى Eucharist » وقد قصرُوا أوقاتهم
على الصلاة وجعلوا يتكفّفون الناس حتى يشدوا رملهم . كما أنه كان من بينهم طوافون فى
الأرض من الرجال والنساء قد تخلوا عن الدنيا ومتاعها . وفى الصيف ينامون على قارعة الطريق
على أن مناهضيتهم يرمونهم بالفساد وانتشار الانحلال بينهم .

Encyclopaedia of religion and Ethics. V.5 : P. 510

(١) أفلوطين فيلسوف من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة . ولد سنة ٢٠٥ م من أسرة
رومانية ، استقر بها المقام فى مصر ، وتعلم فى مدرسة الاسكندرية ثم رحل إلى روما فنشر
مذهبه ، حيث المذاهب الفلسفية القديمة ، وحيث المسيحية . توفى سنة ٢٧٠ م .

٢ - الأفلاطونية الحديثة

« أرسطو » - لا « أفلاطون » - هو الشخصية البارزة ، فى الفلسفة الإسلامية . وقليلون من المسلمين يعرفون اسم « أفلوطين » الذى يدعى أكثر ما يدعى « بالشيخ اليونانى » . بيد أن العرب قد اكتسبوا معرفتهم لأرسطو عن طريق شراحه ، من رجال الأفلاطونية الحديثة . ومن هنا كانت الطريقة التى تشربوها هى طريقة « فرفيوس Porphyry » ^(١) و « بركلوس Proclus » ^(٢) . ومن هنا لم يكن الكتاب الذى يدعى « كتاب الربوبية لأرسطو » ^(٣) ، والذى ظهرت له ترجمة عربية ، فى القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى - غير مختصر للأفلاطونية الحديثة .

وهناك نتاج آخر لهذه المدرسة ، يستحق عناية خاصة ؛ وأعنى به هذه الكتابات التى نسبت زورًا « لديونيسيوس القاضى Dionysius The Areopagite » ^(٤) . الذى نصره القديس بولس . وهذا الديونيسيوس المستعار

(١) فرفيوس الصورى ، ولد سنة ٢٢٣ م ، وتوفى بعد سنة ٣٠٠ م ، فى حكم دقلديانوس . من بلدة « صور » بالشام . انتقل إلى روما ، مع أستاذه أفلوطين ، وشرح آراء أستاذه ودافع عنها . وعلق على كتب أفلاطون وأرسطو . والكتاب الذى اشتهر به عند المسلمين هو « إيساغوجى » أو « المدخل » .

(٢) بروكلوس فيلسوف من فلاسفة الأفلاطونية الحديثة . ولد سنة ٤١٢ م وتوفى سنة ٤٨٥ م . درس الفلسفة فى « الاسكندرية » ، وقام بتعليمها فى « أثينا » . وفى الأربعين من عمره ، خلف « سريانوس » فى رئاسة مدرسة أثينا . وظل فى هذا المنصب أكثر من ثلاثين عاما . وهو - بعد أفلوطين - أشهر رجال المدرسة الأفلاطونية الحديثة . وله شروح مشهورة على كتب « أفلاطون » .

(٣) كتاب « أتولوجيا أرسطو » أو « كتاب الربوبية » لأرسطو نشره بالعربية ديتريتش سنة ١٨٨٠ فى ليسك .

(٤) ديونيسيوس القاضى ، أو ديونيسيوس الأريوباجى ، منسوب إلى Areopagus أو ما يعرف « بنجدمارس Mars'Hill » وهو مكان كانت تجتمع عليه الهيئة العليا للقضاء فى أثينا . والقديس ديونيسيوس باكورة الفلاسفة الأثينيين الذين آمنوا بالمسيحية ، وتولوا الدفاع عنها ، والدعوة لها بمجرد أن سمع القديس بولس ، فى « مجمع أريوباجوس » . وكان من قبل عضوا فى المحكمة العليا . وهو أول أسقف رسم لأثينا كما أنه ممن استشهدوا فى القرن الأول المسيحى دفاعا عن دينهم .

صور من تاريخ القبط ص ٧

- ولعله أن يكون راهباً سريانياً - يسمّى أستاذاً له « هيروثيوس Hierotheus »
الذى لا يراه « فروتنهام ^(١) Frothingham » غير « اصطفان بن صديلي ^(٢) Stephen
Bar Sudaili » الغنوصي السرياني الشهير ، الذى عاصر « يعقوب السروجي ^(٣) »

(١) انظر مقال الأستاذ فروتنهام فى أعمال جمعية المستشرقين الأمريكية سنة ١٨٨٢ ص
٩ - ١٣ تحت عنوان On The Book of Hierotheus. By a Mystic of the Fifth
Century. The Amer. Or. Soc. Proce. 1882; pp 9-13

(٢) اصطفان بن صديلي . سرياني ، ولد فى النصف الثانى ، من القرن الخامس
الميلادى ، فى مدينة (الرها = أورفه = Edessa) وكان فى مبدأ حياته يعقوبيا . وقد رحل فى
شبابه إلى مصر ، حيث كان بها راهب يسمى يوحنا ، وهو فيما يظهر الذى لقنه آراء
« أوريجين » عن « وحدة الوجود » تلك الآراء التى عاد بها إلى الرها . واشتغل بشرح الإنجيل ،
حسبما هداه إليه تفكيره . وابتدأ ينكر أبدية عذاب جهنم وأكد أن المذنبين سيعودون إلى
الجنة ، بعد تطهيرهم فى النار . فلما شاعت عنه هذه الآراء ، رمى بالإلحاد ، وطرده من الرها .
فرحل إلى دير فى بيت المقدس . ولاشك أنه وجد بين رهبانه عددا ممن يشاطرونه هذه الآراء ،
وذريب أنه قد عرف الرسائل المنحولة لديونيسيوس القاضى وهى رسائل ، شاء مؤلف مغمور ،
أن يجد رواجاً لآرائه - وبعضها عن وحدة الوجود - فجمعها وعزاها إلى ديونيسيوس
لشهرته . ويبدو أن اصطفان قد تشبه بهذا المؤلف المغمور ، فإنه جمع آراءه ، ونسبها إلى
هيروثيوس ، الأستاذ المزعوم لديونيسيوس القاضى . وهذا الكتاب عن أسرار الكنيسة . وقد
استعرض المؤلف فيه سلسلة آرائه ، ولكن الأسلوب السرياني الرشيقي يؤكد لنا أنه من وضع
اصطفان نفسه . ولم يجد هذا الكتاب طريقه إلى الانتشار ، حتى إن ابن العبري يقول إنه وجد
مشقة كبيرة فى الحصول على نسخة منه . وقد وصل إلينا هذا الكتاب ، فى نفس المخطوط
الذى حصل عليه ابن العبري ، والذى يشتمل على شرح تيوديسيوس

Dictionnaire de Theologie Catholique. V.5; P. 981

وكذلك : تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامى ، للدكتور مراد كامل
ومحمد حمدى البكرى ص ١٤٣ ، ١٤٤

(٣) يعقوب السروجي ، علم من أعلام الأدب السرياني ، ولد فى (كورتم Kurtum)
سنة ٤٥١ م ، وهى قرية على الفرات ، غربى حران ، وإحدى قرى منطقة (سروج) ولذلك
لقب بالسروجي . تلقى علومه فى مدرسة الفرس بالرّها . وتمكن بعد فترة قصيرة أن يفوز
بشهرة واسعة ، لعلمه وفصاحته . وانتظم فى سلك الكنيسة . فبدأ حياته قيما فى (حورا) سنة
٥١٣ م غير بعيد من مسقط رأسه . ثم عين أسقفا على (بطنان) عاصمة منطقة (سروج) سنة
٥١٩ م وكان حينئذ فى الثامنة والستين من عمره ، ولكنه لم يعمر بعد ذلك طويلا ، فمات فى
(بطنان) فى نوفمبر سنة ٥٢١ م وهو فى السبعين من عمره .

Jacob of Saruj ٤٥١ - ٥٢١ م . ويقتطف ديونيسيوس بعض المقطوعات ، من أغاني الحب ، التي صاغها اصطفان هذا . وقد وصل إلينا مؤلف كامل هو « كتاب هيروثيوس عن أسرار الربوبية المغيبة » في مخطوط فريد يحتفظ به الآن « المتحف البريطاني British Museum » .

وقد نقلت كتابات « ديونيسيوس » إلى اللاتينية ، على يد « يوحنا سكوتس إريجينيا »^(١) John Scotus Erigena . وأقامت تصوفا مسيحيا في العصر الوسيط ، موطنه أوروبا الغربية .

ولم يكن تأثيرها في الشرق أقل منه في الغرب . فقد نقلت من الأغريقية إلى السريانية عقيب ظهورها . وانتشر مذهبها في قوة ، بالشروح التي ظهرت في هذا اللسان نفسه . وحوالي النصف الأول من القرن الثالث الهجري - نهاية النصف الأول من القرن التاسع الميلادي - كان ديونيسيوس معروفا من نهر دجلة إلى المحيط الأطلسي .

وكان إلى جانب التراث العلمي مسارب أخرى ، انتقلت بواسطتها مذاهب « الفيض Emanation » و « الأشراق Humination » و « المعرفة Gnosis » و « الجذب Ecstasy » . على أننا قدمنا للقارئ ما فيه مقنع ، من أن الأفكار الصوفية الأغريقية ، كان يعبق بها الجو يومئذ ؛ وكان الوصول إليها سهلا ميسورا على السكان المسلمين ؛ في غربي آسيا ، وفي مصر ، حيث تشكلت الشيوصوفية الصوفية .

وقد قيل عن ذي النون المصري - وله القدم الأولى في نمو الصوفية - إنه فيلسوف وإنه كيماوي^(٢) . ومعنى ذلك أنه تتلمذ للعلم الهلينستي . فإذا

Encyclopaedia Britannica; V. 12; P. 800

=

وكذلك : تاريخ الأدب السرياني ص ١٤٨ وما بعدها .

(١) يوحنا سكوتس إريجينيا . ولد في اسكتلندا ، في مفتتح القرن التاسع الميلادي وتوفي حوالي سنة ٨٨٠ م ، أخذ بنصيب وافر في المجادلات ، والمنازعات الدينية ، الناشئة في وقته . وكان له تأثير واضح ، رغم القرار الذي أصدره البابا نيقولا الأول ضد آرائه

Dictionnaire de Theologie Catholique; V. 5; P. 461

(٢) يقول القفطي : « ذو النون من طبقة جابر بن حيان ، في انتحال صناعة الكيمياء ، =

أضيف إلى هذا أن أكثر آرائه تتفق ومانجد - مثلاً - في كتابات ديونيسيوس ؛ جرننا ذلك حتماً إلى الجزم بأن الأفلاطونية الحديثة قد صبت على الإسلام صبغة من العنصر الصوفي عينه ؛ الذي صبغت به المسيحية من قبل ؛ وذلك محتمل جداً كما أثبت فيما سلف .

٣ - الغنوصية (١)

إنه وإن أعوزنا الدليل الحاسم هنا ، فإن المقام الملحوظ الذي تحتله نظرية المعرفة Gnosis « في تفكير الصوفية الأولين ، تفترض اتصالاً بالغنوصية المسيحية .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن والدي « معروف الكرخي » الذي ذكر تعريفه للصوفية ، في صدر هذه المقدمة ، بأنه : « الأخذ بالحقائق » (٢) كانا صابئين - يعني نسطوريين (٣) - يقيمان في البطائح البابلية ، بين « واسط » و « البصرة » .

وآخرون من أولياء المسلمين قد تعلموا « اسم الله الأعظم » . فقد علمه إبراهيم بن أدهم (٤) رجلٌ لقيه ، وهو على سفر في الصحراء ، فلم يكذب يلفظه حتى رأى الخضر « إلياس » .

= وتقلد علم الباطن ، والإشراف على كثير من علوم الفلسفة .

القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء : ص ١٢٧ س ٦

ويقول ابن النديم . « ذو النون كان متصوفاً ، وله أثر في الصنعة ، وكتب مصنفة فمن كتبه : « الركن الأكبر » « كتاب الثقة في الصنعة » .

ابن النديم : الفهرست : ج ٢ ص ٣٥٨ س ٣ - ٥

ويقول حاجي خليفة : « قصيدة ذي النون المصرى في الصنعة - صنعة الكيمياء - شرحها الإمام أيديمر بن على بن أيديمر الجلدكى وسماه « الدر المكنون » .

حاجي خليفة : كشف الظنون ج ٤ ص ٥٣٨ س ٤ - ١٠

(١) جولدزيهر في مقاله : العنصر الغنوصي والأفلاطوني الجديد في الحديث

Neoplatonische und gnostische im Hadit. Zeitschrift für Assyriologie XXII.

(٢) القشيري : الرسالة القشيرية ص ١٦٥ س ٢٢

(٣) المصدر السابق ص ١٢ س ١ - ١٠

(٤) المصدر السابق ص ١٠ س ٦ - ٨

واستعار الصوفية المتقدمون من المانوية لفظ « صديق » التي أطلقوها على شيوخهم في الله . واعتقدت مدرسة متأخرة ، أن اختلاف ظواهر الأشياء ، ناتج عن اختلاف النور والظلمة ، راجعة بذلك إلى « ثنوية مانى » ^(١) . يقول محمد إقبال ^(٢) : « إن المثل الأعلى الذى ، يهدف إليه العمل الإنسانى ، هو التجرد من لوثة الظلمة . وتجرد النور من الظلمة ، معناه أن تدرك النفس النور نورا »

والنص التالى لمذهب السبعين ألف حجاب ، كما شرحه درويش رفاعى محدث ، يعرض آثارا واضحة للغنوصية . ولا أكاد أجد مناصا من ذكره كاملا هنا لبالغ أهميته :

« سبعون ألف حجاب تفصل بين الله - الحق الأحد - وبين عالم الحس والمادة وكل روح تمر ، قبل مولدها ، خلال هذه السبعين ألفا . نصفها الباطن من نور ، ونصفها الظاهر من ظلمة . فإذا مرت الروح خلال حجاب من حجب النور نضت عنها حالة من الحالات الربانية ، وإذا مرت خلال حجاب من حجب الظلمة تسربت حالة من الحالات الدنيوية . ومن أجل ذلك يستهل الطفل صارخا . لأن الروح تدرك انفصالها من الله الحق الأحد . وإذا بكى الطفل فى منامه ، فذلك لأن الروح تتذكر شيئا مما فقدت . وقد جر اختراق الحجب عليها النسيان ! ومن هنا سمي الإنسان إنسانا . وهو الآن سجين جسمه ، مقطوعا عن الله بهذه الحجب الكثيفة » .

(١) مائى منشئ نحلة المانوية . ولد بماردين ، من بلاد كردستان سنة ٢١٥ م . وقد جرى مانى مجرى زرادشت ، فى تفسير اختلاط الخير بالشر فى العالم . فادعى أن مافى الكون من خير ، هو خلق قوة خيرة صرف ، هى النور ، وأن مافيه من شر خلق قوة شريرة صرف هى الظلمة . وقد توفى مانى سنة ٢٧٦ م .

(٢) الشيخ محمد إقبال فى :

The development of metaphysics in Persia. P, 150

قال أبو حفص : « النفس ظلمة كلها ، سراجها سرها ، ونور سراجها التوفيق فمن لم يصحبه فى سره توفيق من ربه كان ظلمة كله » .

القشيري : الرسالة القشيرية ص ٦٥

« وجماع غرض الصوفية - طريق الدراويش - أن تهيب له مهربا من هذا السجن ، أن ترفع عنه هذه الحجب السبعين ، وأن تعيد إليه الوحدة الأصلية بالواحد الأحد ، وهو لا يزال في جسمه . فالجسد لا يخلع ، ولكن يصفى ، ويجعل روحانيا فيكون عوناً للروح ، لاعتبة في سبيلها . إنه كالمعدن الذي يصفى بالنار ويغير . والشيخ يخبر مريده بأن عنده سر تغييره . يقول له : « سنلقيك في نار الإحساس الروحي وستطفو نقياً » ^(١) .

* * *

٤ - البوذية

قبل الفتح الإسلامي للهند ، في القرن الرابع الهجري - الحادي عشر الميلادي - كان للبوذية أثر ملحوظ ، في فارس الشرقية وفيما وراء النهر ^(٢) Transoxania فنحن نسمع عن صوامع بوذية مزدهرة ، قامت في بلخ ^(٣) ، قصبة خراسان القديمة . وبلخ مدينة اشتهرت بعدد من الصوفية ، اتخذوها مقاما لهم . والأستاذ « جولدزيهر » ^(٤) قد لفت الأنظار إلى شيء هام . ذلك

The way of the Mohammedan Mystic; by W. H. T. Gairdner (Leipzig ^(١)

1921) P. 9,ff.

(٢) ما وراء النهر ، يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان . فما كان في شرقيه يقال له « بلاد الهياطلة » وفي الإسلام سموه ما وراء النهر . وما كان في غريبه فهو خراسان ، وولاية خوارزم ، وهي إقليم برأسه . وليس بما وراء النهر موضع يخلو من مدينة ، أو قرية ، أو زرع ، أو مراعى .

مراصد الاطلاع ح ٣ ص ٣٤

(٣) بلخ مدينة مشهورة بخراسان ، من أجمل مدنها ، وأشهرها ذكرا ، وأكثرها خيرا . وبينها وبين ترمذ اثني عشر فرسخا . ويقال لجيخون « نهر بلخ » . وهي على الشاطئ الجنوبي لنهر جيحون ، على رافده « دهاس » الذي لا يتصل به الآن . وقد كانت بلخ القصبة السياسية لولاية خراسان القديمة . ثم أصبحت المركز الثقافي والديني لمملكة طخارستان .

مراصد الاطلاع ح ١ ص ١٦٨

دائرة المعارف الإسلامية : مادة بلخ .

(٤) جولدزيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام . ترجمة الأستاذ عبد العزيز عبد الحق ،

والدكتور محمد يوسف موسى ، والدكتور علي حسن عبد القادر ص ١١٩

أن الزاهد الصوفي إبراهيم بن أدهم^(١) يبدو ، فى الرواية الإسلامية ، أميراً بلخ ، تخلص عن عرشه وأضحى درويشاً متنقلاً . وما ذلك إلا تكراراً لقصة « بوذا » .

وقد تعلم الصوفية من أحبار البوذيين استعمال المسابح . ونستطيع أن نؤكد فى اطمئنان ، دون أن نعرض للتفاصيل ، أن طريق الصوفية من ناحية كونها تثقيفاً خلقياً للنفس ، وتأملاً زهدياً ، وتحرراً عقلياً ، مدينة بالكثير للبوذية .

يبد أن النواحي التى تتفق فيها الطريقتان ، سرعان ماتكشف عن الخلاف الأصل بينهما . فهما - فى روعيهما - متعارضتان ، البوذى يقوم نفسه بنفسه ؛ أما الصوفى فيقوم نفسه بمعرفة ربه ، ووجه .

والفكرة الصوفية ، فى فناء النفس الذاتية فى الوجود الكلى ، هى عندى - دون ريب - من أصل هندى . ولعل ممثلها الأول العظيم أبو يزيد البسطامى^(٢) الصوفى الفارسى ، قد تلقاها عن شيخه أبى على السندى . وهذه بعض أقواله :-

١ - للخلق أحوال ، ولا حال للعارف ؛ لأنه محيت رسومه ، وفنيت هويته بهوية غيره ، وغيت آثاره بآثار غيره^(٣) .

(١) أبو إسحق إبراهيم بن أدهم بن منصور ، من كورة بلخ كان من أبناء الملوك ، ثم ترهد . وذلك أنه خرج يوماً متصيداً ، فأثار ثعلباً أو أرنباً ، وهو فى طلبه . فهتف به هاتف : يا إبراهيم ! ألهذا خلقت ؟! أم بهذا أمرت ؟! . ثم هتف به أيضاً من قربوس سرجه : « والله مالهذا خلقت ! ولا بهذا أمرت ! فنزل عن دابته . وصادف راعياً لأبيه . فأخذ جبة الراعى ، وكانت من صوف ، فلبسها وأعطاه فرسه ، وما معه ، ودخل البادية . ثم دخل مكة ، وصحب بها سفيان الثورى ، والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها سنة ١٦٢ هـ .

الرسالة القشيرية ص ٩ ، ١٠

(٢) أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامى ، وأحياناً يلقب بالبسطامى الأكبر ، تميزاً له من أبى يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن على البسطامى ، ويلقب بالبسطامى الأصغر ، منسوب إلى بسطام بلدة مشهورة بقومس . كان جده مجوسياً فأسلم . مات أبو يزيد سنة إحدى وستين ومائتين وقيل أربع وثلاثين ومائتين . ابن الأثير : اللباب ج ١ ص ١٢٣ ، ١٢٤

القشيري : الرسالة القشيرية ص ١٧

(٣) القشيري : الرسالة القشيرية ص ١٨٤ س ٢٠ - ٢٢

٢ - غبت عن الله ثلاثين سنة وكانت غيبتى عنه ذكرى إياه . فلما خَسَّت عنه وجدته فى كل حال حتى كأنه أنا ^(١) .
 ٣ - ثم تنقلت من إله إلى إله حتى نادوا منى فى « أنت أنا » .
 وهذه كما ترى ليست « البوذية » إنما هى « حلولية الثيدنتا » :
 « Pantheism of Vedanta » ^(٢) . ولسنا نوحّد « الفناء » و « النرفانا » من كل وجه ، لأن كلا الاصطلاحين يدل على فناء الشخصية ، بل إن « النرفانا » سلبية خالصة و « الفناء » يصحبه « البقاء » أى الحياة الخالدة فى الله .
 وانجذاب الصوفى ، الذى تعرى عن نفسه ، فى التأمل الانجذابى ، للجمال الربانى معارض تماما لهدوء « الأرهات The Arhat » العقلى الخالى عن الشعور .

وأنا أؤكد هذه المعارضة ، لأنه قد غولى كثيرا - فى رأى - فى تقدير تأثير البوذية على التفكير الإسلامى . وكثير مما عزى إلى البوذية ، هندی أكثر منه بوذى تعيينا . ونظرية « الفناء » الصوفية خير مثل على ذلك . والعامّة من المسلمين ينظرون فى كراهية إلى أشياع « بوذا » . ويرونهم وثنيين ؛ فليس من القريب ولا من المحتمل ، أن يعقدوا معهم أواصر صلة .
 على أن البوذية قد سادت خراسان ، قبل الفتح الإسلامى بألف عام ، كما سادت فى فارس الشرقية عموما . ومن هنا كان لابد أن تؤثر فى نمو الصوفية فى هذه الأصقاع .

والفناء - من وجهه الحلولى - وإن اختلف تماما من « النرفانا » إلا أنه متفق معه تمام الاتفاق من الوجوه الأخرى ، حتى لانستطيع أن نعتبرهما منفصلين تماما . فللفناء وجه أخلاقى ، إذ يستلزم إفناء جميع المشاعر والرغبات . وقد قيل : « إن فناء الصفات الشريرة ، والأفعال الفاسدة التى تنتج عنها ؛ إنما يجى من استدامة الاتصال بالصفات الحميدة والأفعال

(١) أبو نعيم : حلية الأولياء ح ١٠ ص ٣٥ س ١٤ - ٨

(٢) الثيدنتا كلمة سنسكريتية معناها غاية هدف الفيدا ، وهى تستخدم فى الدلالة على طرق البراهمة الفلسفية الست : (السنخيا ، اليوجا ، الميماسا ، الثيدنتا ، الفيششكا ، النيايا) وفى الثيدنتا وضع مذهب الحلول على أسس فلسفية وتدعمت أركانه .

الحسنة » ولك أن توازن هذا بالتعريف الذى ذكره الأستاذ « رايز دافيدس Rhys Davids » للنرفانا :

« هى فناء هذه الحال الشريرة ، التى تملك العقل والقلب ، والتى تكون سببا إلى الوجود الشخصى المتجدد « التناسخ » وذلك طبقا لسر مذهب « الكرما العظيم Karma »^(١) . وهذا الإفناء إنما يجرى من نمو حال العقل والقلب المعارضة ، ويتفق معها ، ولا يتم إلا إذا بلغت هذه الحال المعارضة غايتها . »

فإذا صرفنا النظر عن مذهب « الكرما » الذى لا يلتزم مع الصوفية ؛ طابق الفناء - على أنه حالة أخلاقية - النرفانا ، طباقا يكاد أن يكون كلمة لكلمة . وليس هنا موضع استقصاء هذه الموازنة . ولعلنا نستطيع أن نقول ؛ « إن نظرية الفناء الصوفية قد تأثرت - إلى حد ما - بالبوذية كما تأثرت بالحلولية الهندية الفارسية

. « Perso - Indian Pantheism »

وتقبل الإسلام للأفكار الأجنبية ، قد اعترف به كل باحث آخر . وما تاريخ الصوفية إلا مثل واحد للقاعدة العامة . ولكن هذه الحقيقة ينبغي ألا تدفعنا إلى أن نتطلب ، فى مثل هذه الأفكار ، إيضاحا لجميع هذا الأمر ، الذى نحن بصددده ؛ أو أن نجعل الصوفية هى نفس العناصر الغريبة التى تشربتها وتمثلتها خلال عهد نموها .

فلو أن المعجزة وقعت ، وانقطع الإسلام تماما عن كل صلة بالأديان والفلسفات الأجنبية ، لكان من الحتم أن يقوم فيه لون من التصوف ، ذلك لأن فيه بذورها . وليس فى طوقنا أن نفرد القوى الداخلية ، التى تعمل فى هذا الاتجاه مادامت خاضعة لقانون الجاذبية الروحية . وتيارات التفكير القوية ، التى انصبت داخل العالم الإسلامى ، من النحل غير الإسلامية التى تقدم ذكرها ، دفعت الاتجاهات المختلفة فى الإسلام ، تلك الاتجاهات التى

(١) الكرما نظرية هندية ، تشرح سر الشقاء الانسانى . فقد أرجعته إلى ذنوب قديمة ، يكفر الناس عنها ، عن طريق تناسخ الأرواح . ولكنها لاتحل نشأة هذا الشقاء

أثرت في الصوفية إيجاباً أو سلباً . ولقد رأيناها - في أقدم طابع لها - ثورة زاهدة على النعيم ومتاع الدنيا . ثم كانت « العقلية السائدة Rationalism » و « الشكسية Scepticism » اللتان استثارتا حركات مضادة لهما صوب « الإلهام Intuitive Knowledge » وإيمان التسليم والعاطفة ؛ كما أثارتا رد فعل سنّي ، دفع بدوره كثيراً من نوابغ المسلمين إلى صفوف الصوفية .

ولعله أن يقال : كيف يمكن لدين أقامه محمد على التوحيد الخالص المتشدد ، أن يصبر على هذه النحل الجديدة ، بله أن يكون معها على وفاق ؟ وإنه ل يبدو أن ليس في الوسع التوفيق بين « الشخصية الإلهية المنزهة Transcendent Personality of Allah » وبين « الحقيقة الباطنة الموجودة في كل شيء The Immanent Reality » التي هي حياة العالم وروحه . وبرغم هذا فالصوفية بدل أن يطردوا من دائرة الإسلام قد تقبلوا فيها . وفي (تذكرة الأولياء) شواهد على الشطحات الغالية للحلولية الشرقية .

* * *

ولنعد حينئذٍ إلى القرآن ، بذلك المحك الذي لا يخطئ ، والذي يجب أن يوزن به كل رأى أو علم إسلامي ، هل نجد فيه أصولاً للتصوف ؟

يبدأ القرآن - كما ذكرت - بفكرة « الله » الواحد الصمد ، الإله القادر الذي تنزه عن المشاعر والميول البشرية ، وهو سيد عباده ، لا والد أبناؤه ، والقاضي الذي ينزل بالآثمين عدلاً رادعاً ، ويسقط رحمته على من يتقون غضبه بالتوبة والخضوع ، وأعمال البر يواصلونها ، فهو « إله خوف » أكثر منه « إله حب » .

هذا جانب من رسالة محمد . وهو - دون ريب - أهم الجوانب . بيد أن محمداً ، برغم إقامته هوة شاسعة بين العالم وبين الله ، فإن فطرته العميقة أوجدت وحياً مباشراً من الله للروح ؛ وليس في هذا مفارقات في منطق الإحساس . ومحمد - وقد كان فيه بعض مافي الصوفى - أحس الله قريباً ، وأحسه بعيداً ؛ متعالياً عن الكون ، وموجوداً فيه .

فهو من الوجه الأخير ﴿ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور : الآية ٣٥] وهو الموجود الذي يتصرف في الكون ، وفي روح الإنسان ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴿ [البقرة : الآية ١٨٦] ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَلِّ الْوَرِيدِ ﴿ [ق : الآية ١٦] ، ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿ [الذاريات : الآيات ٢٠ ، ٢١] ولقد طال عليهم الأمد قبل أن ييصلوا !! فإن التفكير الإسلامى ، وقد فزعته الرؤى المخيفة لغضب الله الذى سينزل بالمذنبين ، قد تنبه فى بطيء وعسر لأهمية هذه الأفكار الحرة . والآيات التى سقتها لاتقوم وحيدة . والقرآن مهما يكن مغاضباً للتصوف ، فإننى لأؤكد أجد عندى القبول ، للرأى الذى يذهب إلى أن ليس فى القرآن أصل للتفسير الصوفى للإسلام . وقد أبان ذلك أتم البيان الصوفية الذين عالجوا القرآن ، إلى حد بعيد ، على النحو الذى عالج به « فيلون ^(١) » Philo أسفار موسى Pentateuch ^(٢) . بيد أنه لم يكن ليقض لهم النجاح الكامل فى اجتذاب جمهرة المتدينين من المسلمين إلى صفوفهم ؛ لولا أن رعوس أهل السنة بدأوا يشيدون بناء من الفلسفة المدرسية ، ردت الطبيعة الإلهية إلى وحدة صرفة ، جامدة لاتتغير ، وإرادة مجردة ، قد حرمت من جميع العواطف والمشاعر ، وقدرة خارقة تعز على الحصر لا يستطيع بشر أن يعقد معها أواصر صلة شخصية أيما كانت .

هذا هو إله علم الكلام . ومن هنا كان الخيار ، فاخترت الصوفية . ومن هنا كانت « جمهرة المفكرين ، من متدنى المسلمين ، صوفية . وكانوا كلهم كذلك حلولين . وقليل من يفتن إلى ذلك » كما يقول الأستاذ « دنكان مكادونالد D. B. Macdonald » وهو الحجة الثقة بين من تصدوا لهذا الموضوع .

(١) فيلسوف يونانى ، من أصل يهودى . ولد بالاسكندرية ، حوالى سنة ٢٠ ق م . وفلسفته مزيج من فلسفة أفلاطون ومن التوراة . وكان له أثر واضح على الأفلاطونية الحديثة وعلى الأدب المسيحى .

(٢) أسفار موسى الخمسة ، هى الأسفار الأولى من العهد القديم . وهى : سفر التكوين ، سفر الخروج ، سفر اللاويين ، سفر العدد ، سفر التثنية .

وصلة أشخاص الصوفية بالإسلام تختلف من استمسك بالإيمان بالله ورسوله يزيد أو ينقص ، إلى اعتراف ظاهري به . وبينما يعترف عموماً للقرآن والحديث بأنهما المقياس الذى لا يتغير للحقيقة الدينية ؛ فإن ذلك لا يشمل الاعتراف لأى سلطان خارجي ؛ ليقرر أن هذا موافق للشريعة ، وأن ذلك مخالف لها . والرسوم العقيدية والجدلية لا أهمية لها فى تقدير الصوفى . وكيف يشغل نفسه بها وعنده العقيدة التى أخذها عن الله مباشرة ^(١) ؟ وهو إذ يقرأ القرآن - فى تمنع وتأمل - تتثال على عينه الباطنة معانيه الخبيثة ، لا مقطوعة ولا محدودة . ذلك ما يسميه الصوفية « الاستنباط » . وهو نوع من المعرفة البديهية ، انصباب للعلم الإلهي المنكشف ، فى قلوب صفيت بالندم ، وامتلات بالتفكير فى الله ، واخراج لذلك اللم على اللسان المترجم . ومن الطبيعى ألا تتفق المذاهب التى قامت على أسس الاستنباط مع أنفسها ، أو مع علم الكلام . ومن السهل تفسير الاختلاف ؛ فعلماء الكلام ، الذين يفسرون « المبنى » ، لم يكن من المتوقع أن يصلوا إلى نفس النتائج التى يصل إليها الصوفية ، الذين يفسرون « المعنى » . وإذا اختلفت كلتا الفرقين على نفسها فذلك تعميم رحيم للحكمة الإلهية ؛ من حيث أن الجدل الكلامي إنما كان ليقضى على الخطأ الديني ؛ أما تنوع الحقيقة الصوفية فإنما كان لموافقة الأساليب ، والدرجات المتعددة للرياضة الصوفية . وسأفصل ما أجملته من موقف الصوفية تجاه الدين الإيجابي . ولكن يقال اجمالاً أن كثيرين منهم كانوا من خيار المسلمين ، وإن كثيرين منهم لم يكونوا مسلمين اطلاقاً ، وطائفة ثالثة - ولعلها أن تكون أكبر الثلاثة - مسلمة تقليداً . وفى خلال العصور الوسطى الباكورة ، غدا الإسلام كائناً نامياً ، ثم تغير تدريجاً ، تحت تأثير الحركات المتضاربة ، التى كانت الصوفية واحدة منها . و « السنية » - فى شكلها الحاضر - مدينة بالكثير للغزالي ^(٢) ، وليس

(١) قال أبو يزيد البسطامي لعلماء عصره « تأخذون علمكم ميتاً عن ميت وتأخذ علمنا عن الحي الذى لا يموت » .

حسن العدوى : شرح البردة ، القاهرة سنة ١٢٩٧ هـ ج ٢ ص ٧٦

(٢) الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي ، الإمام الجليل =

الغزالي إلا صوفيا . فبتأليفه وسلوكه ، غدا التفسيرُ الصوفيُّ للإسلام - إلى حد كبير - موقفا بين المطالب المتعارضة للعقل والنقل . وبسبب ذلك كان الغزالي أقل فائدة من الصوفية الخالصة اللون . للدارس الذي يريد أن يعرف ماذا تكون الصوفية أصلا .

والتعارف المتعددة للصوفية التي وردت في الكتب العربية والفارسية . وإن كانت ذات فائدة تاريخية . فإن أهميتها الرئيسية في أنها تعرض الصوفية على أنها غير ممكن تحديدها . وقد قص جلال الدين الرومي . في كتابه « المثنوى » ^(١) قصة عن فيل عرضه بعض الهندوسين في حجرة مظلمة . فتجمع الناس ليروه . ولكن ظلام المكان منعهم أن يبصروه . فلمسوه بأيديهم ليعلموا على أى مثال هو : فلمس بعضهم خرطوم . فقال : إنه يشبه أنبوبة الماء . وبعضهم أذنه فقال : لا بد أن يكون كمروحة كبيرة . وآخر رجله فحسب أنه كالسارية . ولمس بعضهم ظهره ، فأعلن أن الحيوان لا بد أن يشبه العرش العظيم . وكذلك حال الذين يعرضون للتصوف بالتعريف . لا يستطيعون إلا أن يحاولوا التعبير عما أحسسته نفوسهم . ولن يكون تعريف مفهوم . يضم كل خفية من الشعور الديني المستكن لكل فرد . وما دامت هذه التعريفات - على أى حال - تصور في اختصار لائق ، بعض وجوه

= وحجة الإسلام في المنتول والمفهوم ، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه ، في دكانه بطوس ، ومن هنا قيل له « الغزالي » بتشديد الزاى على عادة أهل جرجان وخوارزم في النسبة . وقيل أنه بالتخفيف ، نسبة إلى غزالة ، قرية من قرى طوس . من أشهر مؤلفاته (احياء علوم الدين) مات سنة خمس وخمسمائة .

السبكي : طبقات الشافعية . ج ٤ ص ١٠١ - ١٨٢

(١) صاحب هذا الكتاب جلال الدين محمد بن محمد بن الحسين البلخي الرومي شاعر صوفي ، فارسي مشهور ، طار ذكره بهذا الكتاب « مثنوى معنوى » . وقد ترجم هذا الكتاب إلى التركية ، والعربية ، والهندستانية ، والإنجليزية . وغيرها . فترجمه نثرا إلى التركية اسماعيل الأنقراوى وسماه « فاتح الأبيات » وطبع في بولاق سنة ١٢٥١ هـ وفي الآستانة سنة ١٢٨٩ هـ . وترجمه إلى التركية شعرا ، اسماعيل النحيفي . وترجمه إلى العربية نثرا ، يوسف ابن أحمد المولوى ، وسماه : « المنهج القوى لطلاب الثنوى » . بولاق سنة ١٢٨٩ هـ . وقد نشر الأصل الفارسي ومعه ترجمة إلى الإنجليزية ، الأستاذ الدكتور نيكلسون سنة ١٩٢٤ - ١٩٤٠ في سلسلة « جب » التذكارية .

التصوف وخصائصه . فسنعرض ألوانا قليلة منها .

- ١ - الصوفية هي أن الأفعال التي تقع على الصوفى لا يعلمها أحد إلا الله . وأن يكون مع ربه على نحو لا يعلمه أحد إلا الله وحده .
- ٢ - قال أبو محمد الجريري ^(١) : « التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب » ^(٢) .
- ٣ - قال سمنون ^(٣) « التصوف ألا تملك شيئا ولا يملكك شيء » ^(٤) .
- ٤ - قال النورى ^(٥) : « ليس التصوف برسوم ولا علوم ؟ ولكنها أخلاق » ^(٦) . أى أنه إن كانت هناك قاعدة سلوكية لشخص فهي نتاج لمجهوده العنيف . وإن كان هناك علم فهو نتاج تعلمه : أما الصوفية فعلى خلاف ذلك . إنها نهج موافق لقول الرسول « تخلقوا بأخلاق الله » وأخلاق الله لن يوصل إليها بأسباب من القواعد . ولا بأسباب من العلم .
- ٥ - وقال الجريري : « التصوف ، الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى » ^(٧) .

(١) أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجريري ، من كبار أصحاب الجنيد صاحب سهل بن عبد الله ، وأقعد بعد الجنيد فى مكانه . وكان عالما بعلوم الصوفية . مات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . القشيري : الرسالة القشيرية ص ٢٠ س ٢٤ - ٢٧

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٦ س ١٣

(٣) أبو الحسن سمنون بن حمزة . صاحب سرىا السقطى ، وأبا أحمد القلانسى ، ومحمد بن على القصاب وغيرهم . وكان سمنون ظريف الخلق أكثر كلامه فى المحبة وكان كبير الشأن ، مات قبل الجنيد .

القشيري : الرسالة القشيرية : ص ٢٨ س ١٤ - ٢٩

(٤) المصدر نفسه : ص ١٦٥ س ٢٠ . وكذلك ، أبو نصر السراج الطوسى : اللمع ص ٢٥

(٥) أبو الحسين أحمد بن محمد النورى . بغدادى المولد والمنشأ ، بغوى الأصل . صاحب السرى السقطى ، وابن أبى الحوارى . وكان من أقران الجنيد . مات سنة خمس وتسعين ومائتين .

القشيري : الرسالة القشيرية ص ٢٦ س ٦ - ٩

(٦) السلمى : طبقات الصوفية : ورقة ٤١ ظ .

(٧) أبو نصر السراج : اللمع ص ٢٦

٦ - وقال الجنيد ^(١) : « التصوف ، أن يملك الحق عنك ويحييك به » ^(٢) .

٧ - قال أبو يعقوب المزابلي « التصوف حال تضحل فيها معالم الإنسانية » ^(٣) .

٨ - وقال أبو الحسن السيرواني : « الصوفي يكون مع الواردات لامع الأوراد » ^(٤) .

٩ - وقال أبو بكر الشبلي ^(٥) « التصوف ضبط حواسك ، ومراعاة أنفاسك » ^(٦) .

وقال رويم البغدادي ^(٧) : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار ^(٨) .
ولابد أن القارئ قد لاحظ أن « الصوفية » كلمة تجمع معاني كثيرة ، وأن من يتصدى لرسم معالمها الرئيسية ، إنما يكون مسوقاً إلى رسم ضروب

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد . أصله من نهاوند ، ومولده ومنشؤه بالعراق . وكان أبوه يبيع الزجاج فلذلك يقال له القواريري . وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور . صحب خاله سرياً السقطي ، والحرث المحاسبي ، ومحمد بن علي القصاب . مات سنة سبع وتسعين ومائتين .

القشيري : الرسالة القشيرية ص ٢٤ س ١٢ - ١٦

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٥ س ١٢

(٣) القشيري : الرسالة القشيرية ص ١٦٦ س ٢٦ ، ٢٧

(٤) القشيري : الرسالة القشيرية ص ١٦٦ س ٢٧ ، ٢٨

(٥) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي . بغدادى المولد والمنشأ ، وأصله من أشروسنة . صحب الجنيد ومن فى عصره ، وكان نسيج وحده ، حالاً وظرفاً وعلماً . مالكى المذهب عاش سبعة وثمانين سنة . ومات فى ذى الحجة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة . وقبره ببغداد .

القشيري : الرسالة القشيرية ص ٣٣ س ٢٥ - ٣٠

(٦) السلمى : طبقات الصوفية : ورقة ٨٤

(٧) أبو محمد رويم بن أحمد . بغدادى من أجلة المشايخ . مات سنة ثلاث وثلثمائة وكان مقرئاً ، فقيهاً على مذهب داود .

القشيري : الرسالة القشيرية ص ٢٧ س ١ - ٣

(٨) المصدر نفسه ص ١٦٥ س ٢٤ - ٢٦

من الصور المعقدة ، التي لا تمثل طابعا معيناً أبداً ، وليست الصوفية فرقة ، ولم يكن لهم مذهب مرسوم فى العقائد . وطرقهم التي يبحثون بها عن الله « متعددة تعدد أرواح الخلق » وتختلف إلى غير نهاية ، على أنه يمكن تتبع رابطة القرابة بينها .

وأوصاف هذه الظاهرة المتغيرة ، لا بد أن تختلف اختلافاً واسعاً ، بين فرد وآخر . والأثر الذى ينتج فى كل حالة ؛ لا بد أن يتوقف على اختيار المواد ، والأهمية التى تعطى لهذا الوجه أو ذاك ، من الكل المتعدد الوجوه . وقد استبان الآن أتم استبانة ، جوهر الصوفية فى أقصى أنموذج لها ؛ ذلك الأنموذج الذى هو حلولى تأملى ، أكثر منه زهدى ورع .

* * *

ومن هنا وضعت هذا الأنموذج - عن قصد - فى صدر الحديث . ومزية تحديد موضوع البحث غير منكورة ؛ ولكنها تجر بعض الخسران على الموضوع . ولكي نكوّن حكماً عادلاً على التصوف الإسلامى ، سأذيل الفصول التالية بصورة مصاحبة ، رُسمت خصيصاً من هذه الأنواع الهادئة ؛ التى اضطررتنى ضيق المكان إلى إغفالها أسفاً .

* * *

الفصل الأول

الطريق

وصف متصوفة كل جنس ونحلة ، تقدم الحياة الروحية ، بأنه « رحلة » ، أو حج » وقد استعمل - للدلالة على الغرض عينه - رموز أخرى ، بيد أنه بقي لهذه شيوعها العالمى تقريباً فى ناحيتها .

والصوفى الذى يبدأ رحلته ، بغية البحث عن ربه ، يدعو نفسه « سالكا » يتقدم فى « مقامات » رتيبة ، خلال « طريق » يهدف بعده إلى « الفناء فى الحق » . فإن هو حاول أن يرسم خطة هذا الاستعلاء الروحى ، فسوف لا تتطابق تماماً وما رسمه الرواد الآخرون .

وخطط التحقق هذه ، قد بينها شيوخ الصوفية فى عهد باكر . ولكن العادة الإسلامية السيئة ، التى ترمى إلى تعقيد كل شئ وتنظيمه ، أنتجت لنا أعقاباً عديدة .

و « الطريق » الذى بينه مؤلف كتاب « اللمع » ^(١) - ولعل هذا الكتاب أن يكون أقدم بحث مفهوم لدينا عن الصوفية - مكون من المقامات السبع التالية : التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا ^(٢) . وكل واحدة منها - غير الأولى - نتيجة للسابقة عليها . وهذه المقامات

(١) هو الشيخ أبو نصر ، عبد الله بن على بن محمد بن يحيى السراج الطوسى الصوفى . مصنف كتاب « اللمع فى التصوف » . سمع جعفر الخلدى ، وأبا بكر محمد بن داود الدقى ، وأحمد بن محمد السائح . روى عنه أبو سعيد محمد بن على النقاش ، وعبد الرحمن بن محمد السراج ، وغيرهم . قال السلمى : كان أبو نصر من أولاد الزهاد وكان المنظور إليه فى ناحيته فى الفتوة ولسان القوم ، مع الاستظهار بعلم الشريعة . وهو فقيه مشايخهم اليوم . ومات أبوه ساجداً ، ومات هو فى رجب سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة (أكتوبر - نوفمبر سنة ٩٨٨ م) .

الذهبي : تاريخ الإسلام . سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة .

(٢) أبو نصر السراج : اللمع ص ٤١ - ٥٤

السبع جماع التربية الخلقية والزهدية للصوفى . ويجب أن تَمَيَّزَ في عناية مما يسمونه « الأحوال » ^(١) التي تؤلف سلسلة نفسية مماثلة . والمؤلف الذي نقلت عنه آنفا يذكر أحوالاً عشرة ، وهي : المراقبة ، والقرب ، والمحبة ، والخوف ، والرجاء ، والشوق ، والأنس ، والطمأنينة ، والمشاهدة ، واليقين ^(٢) .

وإذا كانت المقامات تنال بمجهود الشخص ، فإن الأحوال تبقى رتبة ومشاعر روحية . لا يملك الشخص من أمرها شيئاً . « ليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات كالمقامات ، بل هي نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم » ^(٣) .

ولا تتم طريق الصوفى حتى يعبر جميع المقامات ، مكملًا نفسه بكل مقام قبل أن يدعه إلى تاليه ، متمرسًا بالحال ، الذي تفضل الله فأسبغه عليه ، وبعدئذ فقط . يكون قد رقى إلى الدرجات العالية من الإدراك ، التي يسميها الصوفية « معرفة » و « حقيقة » ، حيث يصير الطالب عارفاً ، ويتحقق أن العلم ، والعالم ، شئ واحد .

وإذ رسمت - مختصراً ما استطعت الاختصار - الإطار الخارجى للطريق التي يقترب بها الصوفى من غرضه ، فسأحاول الآن أن أقدم شيئاً من أعمالها الداخلية . وهذا الفصل يعالج الجزء الأول من رحلة ثلاثية الأجزاء : الطريق ، والمعرفة ، والحق . وكثيراً ما مثل بها البحث عن الحقيقة .

التوبة :

تنزل التوبة المحل الأول فى جميع قوائم « المقامات » . و « التوبة » هي

(١) الحال - عند الصوفية - معنى يرد على القلب من غير تعمد ، ولا اجتلاب ولا اكتساب . والمقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب ، مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ، ومقاساة تكلف . فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب . والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود .

الرسالة القشيرية ص ٤١ ، ٤٢

(٢) أبو نصر السراج : اللمع ص ٥٤ - ٧٢

(٣) المصدر نفسه : ص ٤٢ س ٨ - ٢٠

الاصطلاح الإسلامى المقابل لكلمة « Conversion » . وبها يبدأ السالك حياة جديدة .

وكثيرا ماتروى فى تراجم كبار الصوفية الأحلام . والرؤى ، والهواتف ، وأمثال ذلك ، مما كان سببا فى سلوكهم « الطريق » . وهذه الروايات - على مايدو عليها من تفاهة - ذات أصل سيكولوجى ؛ وهى جديرة أن تدرس فى تفصيل ، إن ثبتت صحتها . وقد وصفت التوبة بأنها : « انتباه القلب عن رقدة الغفلة ، ورؤية العبد ماهو عليه من سوء الحالة .. فإذا فكر بقلبه فى سوء مايصنعه ، وأبصر ماهو عليه من قبيح الأفعال ، سنح فى قلبه إرادة التوبة ، والإقلاع عن قبيح المعاملة ^(١) ... وشرط التوبة حتى تصح ثلاثة أشياء : الندم على ماعمل من المخالفات ، وترك الزلة فى الحال ، والعزم على ألا يعود إلى مثل ماعمل من المعاصى » ^(٢) . فإن لم يستطع أن يلزم نفسه ذلك توجه إلى الله ، ورحمة الله واسعة . وقد تاب صوفى مشهور سبعين مرة ، وانتكس فى الإثم فى كل مرة ، قبل أن يعقد توبته الأخيرة .

وعلى التائب أن يسترضى جميع الذين أصابهم بضرر ، ماوسعه الاسترضاء . ومن المستطاع سوق أمثلة عديدة على هذا الاسترضاء من « تذكرة الأولياء » ^(٣) .

والتوبة - طبقا لنظرية صوفية عالية - ليست إلا منحة إلهية ، تأتى من الله للعبد ، لامن العبد لله . قال رجل لرابعة ^(٤) : إني قد أكثرت من الذنوب

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٠ س ٥ - ١٠

(٢) المصدر نفسه ص ٥٩ س ٧ - ٣٠

(٣) مؤلف هذا الكتاب ، هو الصوفى الفارسى الشهير ، أبو حامد محمد بن أبى بكر إبراهيم ، فريد الدين العطار . ولد سنة ثلاث عشرة وخمسمائة فى كادكر ، إحدى قرى نيسابور . وكان أبوه عطارا ، فاشتغل بصناعة والده . وقد مات العطار مذبوحا ، ذبحه المغول سنة سبع وعشرين وستمائة . أما كتابه « تذكرة الأولياء » فقد نشره الأستاذ نيكلسون سنة ١٩٠٥ فى مجلدين فى سلسلة « جب » التذكارية .

(٤) أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية ، مولاة آل عتيك الصالحة المشهورة . كانت من أعيان عصرها . وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة . وذكر ابن الجوزى فى كتابه : « شذور العقود » أن وفاتها كانت سنة خمس وثلاثين ومائة . وذكر غيره ، أنها ماتت =

والمعاصي فلو تبت هل يتوب الله علي ؟ » فقالت : « بل لو تاب عليك لتبت ! » ^(١) .

ووجوب تذكر الآثام أو نسيانها بعد التوبة ، مسألة تكشف عن نقطة أصيلة في علم الأخلاق الصوفي . وأنا أعني الفرق بين ما يعلمم للأتباع والمريدين ، وبين ما يمسك عنهم على أنه مذهب خاص بالشيوخ . وكل مرشد روحي مسلم يخبر مريديه أن أسي الإنسان ، وندمه على ما فرط منه من آثام ، هو خير دواء لداء الغرور الروحي . بيد أنه يعتقد أن التوبة الصحيحة في نسيان كل شيء ما خلا الله . يقول الهجویری : « التائب حبيب الله ، وحبيب الله في الشهود ، ومن العيب أن تتذكر الآثام في الشهود ؛ لأن تذكر الإثم حجاب بين الله وبين من يشهده » ^(٢) ذلك لأن بين الإثم ووجود النفس أصرة . ووجود النفس أكبر الآثام .

وليس هذا غير تطبيق واحد للقاعدة ، التي تخلل - كما ذكرت - جميع النظام الأخلاقي للصوفية . وسأبينها أكمل بيان في فصل تال . وأخطارها محققة ، ولكن من العدالة أن نقر أن نظرية السلوك عينيها ، لا يستوى عندها أولئك الذين كملت نفوسهم في التربية الخلقية ، وهؤلاء الذين يجهدون في سبيل الكمال .

مكتوب على باب التوبة : « أيها الداخلون دعوا أنفسكم وراءكم » .

الشيخ :

والسالك يبدأ - الآن - ما يسميه متصوفة المسيحية « طريق التطهر The purgative way » . والقاعدة العامة أن يتخذ له هاديًا - شيخًا أو مرشدًا -

= سنة خمس وثمانين ومائة . وقبرها بظاهر القدس من شرقية ، على رأس جبل يسمى الطور .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨

(١) القشيري : الرسالة ص ٦٢ س ٢٨ - ٣١

(٢) قال الجنيد : دخلت على السري يوما ، فرأيت متغيرا ، فقلت له : مالك ؟! فقال : دخل على شاب ، فسألني عن التوبة ، فقلت له : ألا تنسى ذنبك . فعارضني ، وقال : بل التوبة أن تنسى ذنبك ! فقلت : إن الأمر عندي ما قال الشاب فقال : لم ؟ قلت : لأنني إذا كنت في حال الجفاء ، فنقلني إلى حال الوفاء ، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء . فسكت .

القشيري : الرسالة القشيرية ص ٦١ س ٢٧ - ٣٠

أى رجلا محنك التجربة ، عميق المعرفة ؛ تقوم كلمته المجردة من مريديه مقام القانون . والسالك الذى يحاول أن يعبر « الطريق » دون أن يستعين أحداً ، لا يلقي شيئاً من الاستحسان . ولمثل هذا الرجل يقال : إن هاديه الشيطان ؛ وأنه كالشجرة التى تعوزها عناية البستاني ، فهى لا تثمر ؛ فإن أثمرت كان ثمرها خبيثاً^(١) .

يقول الهجویری - فى حديثه عن شيوخ الصوفية - : « إذا اتصل بهم مريد ، رغبة فى نبذ الدنيا ، أخضعوه ثلاثة أعوام للرياضة والمجاهدة . فإن هو أتم مقتضيات هذه المجاهدة ، فحُبّاً وكرامة ؛ وإلا أعلنوه بأنه لن يقبل فى الطريق . فالسنة الأولى مقصورة على خدمة الخلق ؛ والثانية على خدمة الخالق ؛ والثالثة على مراقبة قلبه . ولن يستطيع أن يخدم الناس ، إلا إذا وضع نفسه فى مقام الخدم ، ووضعهم فى مقام السادة . ومعنى ذلك أن يرى الناس قاطبة خيراً منه ، وأن يعتقد أن عليه أن يخدم الناس على السواء .

ولن يستطيع أن يخدم الله ، إلا بأن يتخلى عن جميع مآربه الذاتية ، سواء منها ما اتصل بحاضر أيامه أو مستقبلها . وأن يعبد الله لذات الله فحسب ؛ فإن من يعبد الله ابتغاء شئ ، فإنما يعبد نفسه من دون الله .

ولن يستطيع أن يراقب قلبه ، إلا أن يجمع فكره ، ويصرف عنه كل هم ، حتى يكون فى صلته بالله ، على احتراز من مهاجمات التبطل .

فإذا حصل السالك هذه الصفات ، فهو فى حل من أن يلبس « المرقعة » - رداء مرقع يرتديه الدراويش - وهو حينئذ صوفى صادق لامتنحلاً متمثلاً بالآخرين .

والشبلی - تلميذ الثيو صوفى الشهير ، الجنيد البغدادي^(٢) جاء الجنيد ،

(١) قال منصور بن عبد الله ، سمعت أبا على الثقفى يقول : « لو أن رجلاً جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس ، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ ، أو إمام ، أو مؤدب ، أو ناصح . ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه عيوب أعماله ، ورعونات نفسه ، لا يجوز الاقتداء به فى تصحيح المعاملات » .

الرسالة القشيرية . ص ٣٤ س ٢٨ - ٣١

(٢) أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادي . أصله من نهاوند ، ومنشأه ومولده =

أول سلوكه الطريق ، وقال له : « لقد حدثوني أن عندك جوهرة العلم الرباني ، فإما أن تمنحنيها وإما أن تبيعنيها » . فقال له الجنيد : « لا أستطيع أن أبيعكها ، فما عندك ثمنها ، وإن منحتها لك ، أخذتها رخيصة ، فلا تعرف قدرها . ألق بنفسك - غير هباب - في عباب هذا المحيط ، مثلما فعلت ، لعلك إن صبرت ، أن تظفر بها » . فسأله الشبلي عما يفعل ، فقال له الجنيد : « إذهب بع الناس كبريتا » . وفي ختام العام قال له : « لقد شهرتك هذه التجارة بين الناس ، فكن درويشا ، لا تشغل نفسك بغير السؤال » . وفي خلال العام ، كان الشبلي يجوس شوارع بغداد ، يسأل المارة احسانهم ، بيد أن أحدا لم يأبه له . ثم رجع إلى الجنيد ، فقال له : « رأيت الآن ؟! لست في أعين الناس شيئا ، فلا تصرف فكرك إليهم ، ولا تقم لهم وزنا . وقد كنت في بعض أيامك حاجبا ^(١) ، ثم اشتغلت حاكما لبعض الأقاليم . فاغد إليه ، واسأل جميع الذين أسأت إليهم ، أن يعفوا عنك » . فأتاع الشبلي . وصرف أربعة أعوام ، يذهب من باب إلى باب ، حتى ظفر بالعفو من كل أحد ، إلا واحدا فشل في العثور عليه . فقال له الجنيد ، حين عاد إليه : « لا يزال فيك ميل إلى الشهرة ! إذهب واسأل الناس عاما آخر » . وفي كل يوم كان الشبلي يُحضر الصدقات ، التي أعطيت له للجنيد ، فيفرقها بين الفقراء ، ويدع الشبلي من غير طعام ، إلى الصباح القادم . فلما انقضى العام على هذا المنوال ، تقبله الجنيد مريدا من مريديه ، على أن يخدم الآخرين عاما . فلما انقضت خدمة العام ، سأله الجنيد : « ماتظن في نفسك الآن ؟! » . فأجاب الشبلي : « أنا أعد نفسي أحقر »

= بالعراق . وكان أبوه يبيع الزجاج ، فلذلك يقال له « القواريري » . وكان فقيها على مذهب أبي ثور . صحب خاله السري السقطي ، والحارث المحاسبي ، ومحمد بن علي القصاب . مات سنة سبع وتسعين ومائتين .

الرسالة القشيرية . ص ٢١ س ١٢ - ١٦

(١) كان الشبلي حاجب الموفق ، وكان أبوه حاجب الحجاب ، وكان الموفق جعل لطعمته « دماوند » - كورة قرب الرى - فلما ولي الموفق الأمر ، وتاب الشبلي ، رجع إلى « دماوند » وقال : « أنا كنت حاجب الموفق ، وكان ولاني بلدتكم هذه فاجعلوني في حل » .

الخطيب : تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٨٩

مخلوقات الله . فقال شيخه : « الآن توثق إيمانك » .

ولست في حاجة إلى أن أقف عند تفاصيل هذه المجاهدة ! الصيام ، والقيام ، ونذر الصمت ، والأيام والليالي الطوال تقضى في التفكير والتأمل ، والانقطاع عن الناس ، وعلى الجملة كل الأسلحة والخطط ، التي تستعمل في معركة جلاد المرء لنفسه ، تلك المعركة التي عدها النبي أشق من الجهاد ، وأجدر بالمشوبة .

ولعل القارئ ينتظر مني أن أصف له ، وصفا عاما ، المجاهدات والنظريات الخاصة ، التي غدت لها « الطريق » تصميميا مناسباً . وستعالج هذه تحت العناوين الآتية : الفقر ، مجاهدة النفس ، التوكل ، الذكر .

وإذا كان الفقر سلباً في طبيعته ، يستلزم التخلص من كل ما هو دنيوي ، فإن الثلاثة الباقية هي الجانب الإيجابي من الطريق . أعني أنها الرياضة الخلقية ، التي تتصل الروح بالحقيقة ، اتصالاً متجانساً منسقاً ، عن طريقها .

الفقر :

والروح الجبرية ، التي جثمت في عبوس ، فوق صبي الإسلام : كالإحساس بأن الأفعال الإنسانية جميعاً قدرتها قوة خفية ، وأنها - في ذاتها - شئ تافه ؛ هذه الروح جعلت من نبذ الدنيا طغراء الزهد الإسلامي الباكر . وكل مؤمن صادق الإيمان ، يلتزم التحرج من اللذائذ غير المشروعة ، ولكن الزاهد إنما استحق الفضل بالتزامه التحرج من اللذائذ المشروعة ، وغير المشروعة ^(١) . وقد فهم نبذ الدنيا - أول الأمر - فهما حسياً خالصاً . فأن تتقلل جهد المستطاع ، من طيبات الحياة الدنيا ، هو أنجع الوسائل لكسب النجاة . وداود الطائي ^(٢) لم يملك من حطام الدنيا إلا حصيراً ، ولبنة يتخذها

(١) قال أبو نصر السراج : « الزهد في الحلال الموجود ، وأما الحرام والشبه فتركه واجب » .

السراج : اللمع ص ٤٦ س ١٤

(٢) داود بن نصير أبو سليمان الطائي الكوفي . كان ممن شغل نفسه بالعلم ، ودرس الفقه ، وغيره من العلوم . ثم اختار بعد ذلك العزلة ، ولزم العبادة ، واجتهد فيها ، إلى آخر عمره . وقدم بغداد ، في أيام المهدي ، ثم عاد إلى الكوفة ، وفيها كانت وفاته ، سنة خمس وستين ومائة .

الخطيب : تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٤٧ - ٣٥٥

وسادة ، ومزادة يجعلها لشرابه واغتساله . ورأى رجل فى نومه مالك بن دينار^(١) ، ومحمد بن واسع^(٢) ، وقد صارا إلى الجنة ، فولجها مالك ، قبل أن يلجها محمد بن واسع ، فصاح الرجل استغرابا ، لأنه كان يرى لمحمد فضل السبق .. فجاءه الجواب « نعم ! ولكنه كان لمحمد بن واسع قميصان ، وليس لمالك إلا قميص واحد . وهذا هو الذى جعل لمالك فضل السبق » والمثل الصوفى الأعلى للفقير ، لا يقف عند هذا الحد . فليس الفقر حقيقته مجرد قلة المال ، ولكنه قلة الرغبة فى المال . قلب فارغ ، ويد فارغة^(٣) . و « الفقير » و « الدرويش » هما الوصفان اللذان يفخر الصوفى بأن ينعت بأيهما . لأنهما يدلان ، على أنه قد تجرد من كل رغبة أو فكرة ، تصرف قلبه عن الله . « هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف »^(٤) بل هو « ترك الشكوى ، وإخفاء أثر البلوى »^(٥) .

وهكذا يتعزى « الفقير » عن وجوده الشخصى ، فلا ينسب إلى نفسه عملا ، أو إحساسا ، أو صفة . ولعله أن يكون غنيا - كما تدل الكلمة فى معناها الشائع - وهو مع ذلك أفقر الفقراء ؛ لأن الله يمنح أوليائه ، فى بعض الأحيان ، الثروة والجاه ، ليخفيهم عن أبناء الدنيا .

(١) مالك بن دينار أبو يحيى . من علماء البصرة وزهادها المشهورين ، كان ينسخ المصاحف . صدوق ثقة . مات سنة ثلاثين ومائة .

الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣

الخيرجى : خلاصة تذهيب الكمال ص ٣١٣

(٢) محمد بن واسع بن جابر ، أبو بكر الأزدي ، البصرى الزاهد ، أحد الأعلام قال سليمان التيمي : « ما أحد أحب إلى من أن ألقى الله بصحيفته إلا محمد بن واسع » توفى سنة سبع وعشرين ومائة ، وقيل سنة ثلاث وعشرين ومائة .

الخيرجى : الخلاصة ص ٣٨

(٣) سئل الجنيد رحمه الله عن الزهد فقال : « تخلى الأيدى من الأملاك ، وتخلي القلوب من الطمع » . وسئل سرى السقطى رحمه الله عن الزهد ، فقال : « إن يخلو قلبه مما خلعت يده » .

اللمع : ص ٤٦ س ١٦ - ١٨

(٤) الرسالة القشيرية ص ٧٣ س ٢٩

(٥) اللمع : ص ٤٩ س ٤ ، ٥ . والتعبير لإبراهيم الخواص .

والذين لهم دراية بالكتاب المتصوفة ، ليسوا فى حاجة إلى أن يعلموا أن تعاريف هؤلاء غامضة ؛ وأن الكلمة الواحدة قد تشيع بين الكثير - إن لم يكن بين الكثرة الغالبة - من المدلولات ؛ يتسع الخلف بينهما أو يضيق ، حسب الجهة التى نظر إليها منها . ومن هنا يكون الخلط واضحا ، فى رسائل الصوفية .

وإذا بين الفقر مثلا أحد الشراح على أنه « نظرية متسامية - Transcendental Theory » وبينه آخر ، على أنه قاعدة عملية للحياة الدينية ؛ فليس من الممكن أن تتطابق المعانى .

وليس الفقر ، إذا نظرنا إليه من الوجه الأخير ، غير بدء للصوفية . يقول الجامى :

« الفقراء يرفضون حطام العاجلة ، ابتغاء رضوان الله ، وهم مدفوعون إلى هذه التضحية ، بدافع من ثلاثة :

- (أ) رجاء الحساب اليسير فى يوم القيامة ، أو خوف العقوبة .
- (ب) الرغبة فى الجنة .

(ج) الشوق إلى طمأنينة الروح ، وهدوء الباطن . وهم ماداموا يبحثون عن نفع أنفسهم ، غير مصروفين عن ذلك ، فى مرتبة دون الصوفى ، الذى لا مشيئة له أصلا ، وإنما يعتمد اعتمادا خالصا على مشيئة الله . إنه « نسيان النفس » الذى يميز الصوفى من الفقير .

وهذه بعض الوصايا لاتباعها الدراويش :

- أ - لا تسأل ، إلا أن تتصور ؛ فقد جلد عمر رجلا سأل بعد أن سد جوعه فإذا ألجئت إلى السؤال ، فلا تأخذ أكثر مما تحتاج .
- ب - كن كريم النفس ، عديم الشكوى ، واشكر الله على فقرك .
- ج - لا تنزلف إلى الغنى إذا أعطاك ، ولا تلمه إذا منعك .
- د - خف ذهاب الفقر عنك ، أكثر مما يخاف الغنى ذهاب الغنى عنه .
- هـ - تقبل ما أهدى إليك ؛ فإنه طعام يومك ، أرسله الله إليك ؛ فلا ترد هدية الله .

و - لاتجعل إلى التفكير في غدك سبيلا إلى عقلك ، وإلا وقعت في الهلاك الدائم .

ز - لاتتخذ الله مصيدة تصيد به الصدقات .

النفس :

أنشأ شيوخ الصوفية تدريجًا ، مذهبًا للزهد ، والثقافة الخلقية ، قام على أساس أن في الإنسان عنصر شر ، ذلك هو روحه الشهوانية ، أو الدنيئة . وهذه الروح الشريرة - مستقر الشهوة والهوى - تسمى النفس ^(١) . ويمكن أن تعتبر ، على وجه العموم ، مرادفة للجسد ، وهو وأعوانه ، الدنيا والشيطان ، أعظم العقبات في سبيل تحصيل الاتحاد مع الله ^(٢) . يقول النبي ﷺ : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » . ولست أريد أن أناقش الآراء المختلفة ، أستظهر طبيعتها ، ولكن التدليل على ماديتها لا يحتمل الإغفال .

يروى محمد بن عليان ^(٣) ، وهو صوفي شهير ، أنه في بعض الأيام ، أبصر شيئًا كالثعلب الصغير ، يخرج من حلقه ، وقد ألهمه الله أن يعرف أنه نفسه ؛ فداسها بقدمه ، فكبرت على الدوس ، فكرر عليها ، فلم تزد إلا ضخامة . فقال : « إن غيرك يتحطم على الأذى والضرب ، فكيف بك تزدادين ؟ » فقالت : « لأنني خلقت على النقيض من الأشياء ؛ ما ساءها يسرنى ، وما سرنى يسوءها » .

(١) يقول القشيري : « ... وعند القوم ليس المراد من إطلاق لفظ « النفس » الوجود ، ولا القلب الموضوع ، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولا ، من أوصاف العبد ، ومذموما من أخلاقه وأفعاله » .

الرسالة القشيرية ص ٥٨ س ١٠ - ١٢

(٢) قال أبو بكر الطمستاني : « النعمة العظمى الخروج من النفس . والنفس أعظم حجاب بينك وبين الله » .

الرسالة القشيرية ص ٣٨ س ١٤ ، ٨

(٣) محمد بن عليان النسوي ، من كبار مشايخ نسا ، ومن أصحاب أبي عثمان الحيري . كان يخرج إليه من نسا ، ليسأله في مسائل ، فلا يأكل ولا يشرب حتى يدخل نيسابور . الشعراني : لواقح الأنوار ج ١ ص ١٣٧

ورؤيت نفس الحلاج^(١) تعدو خلفه ، فى صورة الكلب ؛ وفى حالات أخرى ظهرت فى صورة الفأر ، أو الثعبان .

مجاهدة النفس :

ورياضة النفس ومجاهدتها ، هى العمل الرئيسى فى التقوى ، تقود عن طريق مباشر ، أو غير مباشر ، إلى حياة التأمل . والشيخ جميعاً على أن المريـد الذى يهمل هذا الواجب ، لا يكاد يعرف بدائه التصوف^(٢) . والقاعدة فى هذه الرياضة أن تصرف النفس صرفاً عن هذه الأشياء التى اعتادتها ، وتغرى على مقاومة أهوائها ويهدم كبريائها ، وتوقع فى الشدة والعنت ؛ حتى تدرك وضاعة طبعها الأصيل ، وفعلها الرذيل^(٣) .

ومن الممكن أن يكتب الشئ الكثير عن طرق المجاهدة الظاهرة ، كالصوم والصمت ، والخلوة والعزلة . ولكن علينا أن نجوز ذلك إلى التدريب الأخلاقى العالى ، الذى يكمل الطريق ، ورياضة النفس - كما فهمها السابقون من المتصوفين - تغيير معنى لباطن الإنسان . وحين يقولون :

(١) أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج ، من أهل بيضاء فارس ، ونشأ بواسط العراق . صحب الجنيد ، والنورى ، وعمرو بن عثمان المكي ، والفوطى ، وغيرهم . وشيوخ الصوفية مختلفون فى أمره ، رده أكثرهم ، وأبوا أن يكون له قدم فى التصوف ، وقبله بعضهم كأبى العباس بن عطاء ، وأبى القاسم النصرايذى ، وحكوا عنه كلامه ، قتل ببغداد ، بباب الطاق ، يوم الثلاثاء ، لست بقين من ذى القعدة سنة تسع وثلاثمائة .

الشعرانى : لواقح الأنوار ج ١ ص ١٢٦

(٢) قال أبو على الدقاق : « اعلم أن من لم يكن فى بدايته صاحب مجاهدة ، لم يجد من هذه الطريقة شمة » .

وقال أبو عثمان المغربي : « من ظن أنه يفتح له شئ من هذه الطريقة ، أو يكشف له عن شئ منها ، إلا يلزوم المجاهدة ، فهو فى غلط » .

الرسالة القشيرية ص ٦٣ س ٢٠ - ٢٤

(٣) يقول القشيري : « أصل المجاهدة وملاكها ، فطم النفس عن المألوفات .. واحلالها بعقوبة الذل ، بما يذكرها من حقارة قدرها ، وخساسة أصلها ، وقذارة فعلها » .

الرسالة القشيرية . ص ٦٤ س ١٤ - ٢١

« مت قبل أن تموت » فهم لا يريدون أن النفس الشهوانية ، من الحتم أن تتحطم ، بل يريدون أن من الممكن ^(١) - بل من الواجب - أن تتطهر من صفاتها ، التي ليست إلا شرا خالصا . وهذه الصفات : الجهل ، والكبر ، والحسد ، والبخل ، تستأصل وتستبدل بأضدادها إذا سلمت مشيئتك إلى الله ، وجمعت فكرك في الله . ومن هنا يكون « الموت في النفس حياة في الله » حقا .

والاتجاهات الصوفية ، لهذا المذهب الذي قررت ، سوف تجد مكانها المناسب ، في الفصول القادمة . فأما هنا ، فسنجعل همنا مصروفا إلى الجانب الأخلاقي . والصوفي ، الذي استأصل إرادته ؛ يقال عنه ، في اصطلاحهم . إنه بلغ درجة « الرضا » و « التوكل » .

سقط درويش في دجلة ، فصاح به رجل على الشاطئ ، رآه لا يعرف سباحة « أتريد أن أدعو لك من يخرجك إلى الشاطئ ؟ » . فقال : « لا » . فقال له : « أتريد أن تغرق ؟ » . فقال الدرويش : « لا » . فقال له الرجل : « فما تريد إذن ؟ » . فقال : « يفعل الله ما يريد ! ماشأني إرادتي ؟ ! » .

التوكل :

والتوكل ، في أدق مدلولاته ، يستلزم نبذ كل إرادة شخصية ^(٢) . هو استسلام صرف ، كذلك الذي يكون من بدن الميت ؛ في يد الغاسل ؛ يعده

(١) يقول القشيري : « المعلومات من أوصاف العبد على ضربين : أحدهما يكون كسبا له ، كمعاصيه ومخالفاته ، والثاني أخلاقه الدينية . فهي في أنفسها مذمومة ، فإذا عالجه العبد ونازلها ، تنتفى عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق ، على مستمر العادة .. ومعالجة الأخلاق ، في ترك النفس وكسرها ، أتم من مقاساة الجوع والعطش والسهر ، وغير ذلك من المجاهدات ، التي تتضمن سقوط القوة ، وإن كان ذلك أيضا من جملة ترك النفس » .

الرسالة القشيرية . ص ٥٨ س ١٤ - ٢٤

(٢) قال أبو تراب النخشي حين سئل عن التوكل : « التوكل طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والاطمئنان إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر راضيا موافقا للقدر » .

اللمع : ص ٥٢

للدفن^(١) . هو عدم مبالاة خالصة بالأشياء ؛ حتى ما كان منها متصلا بالنفس في قديم الزمان . وثمة طائفة خاصة^(٢) من قدامى الصوفية ؛ جعلوا من « التوكل » علما عليهم ؛ وطبقوه جهد طاقتهم على حياتهم الخاصة .

فمن أمثال تطبيقهم له ، أنهم لا يطلبون القوت^(٣) ، ولا العمل يؤجرن عليه ، ولا يمارسون تجارة ولا يسمحون للدواء يعطى لهم فى مرضهم . أسلموا أنفسهم تماما ، لعناية الله^(٤) ، ولم يلحقهم الشك ، فى أنه - وهو مالك كنوز السموات والأرض - يكفيهم حاجاتهم : وأن حظهم ، الذى قسم لهم ، سيصيبهم لا محالة ، كما يصيب الطير ، التى لا تمارس زرعا ولا حصدا ، والسماك فى البحر ، والطفل فى رحم أمه .

وهذه القواعد ترتكز ، فى النهاية ، على النظرية الصوفية فى « الاتحاد الإلهى » كما عرفها شقيق البلخى^(٥) بقوله :

(١) قال سهل بن عبد الله : « أول مقام فى التوكل ، أن يكون العبد بين يدي الله ، عز وجل . كالميت فى يد الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير . »

الرسالة القشيرية . ص ٩٩ س ١٦ - ١٩

(٢) سئل سهل بن عبد الله عن التوكل فقال « التوكل وجه كله ، وليس له قفا ، ولا يصح إلا لأهل المقابر » وقد أشار بذلك إلى حقيقة توكل المتوكلين ، وهم الخصوص . اللمع . ص ٥٢ س ١٤ - ١٦

(٣) قال رجل لحاتم الأصم : « من أين تأكل ؟ ! » فقال : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون : الآية ٧]

الرسالة القشيرية : ص ٩٩ س ٢٠ - ٢٢

(٤) سئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل ، فقال : « التعلق بالله تعالى فى كل حال » فقال السائل : « زدنى » . فقال : « ترك كل سبب يوصل إلى السبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك » .

الرسالة القشيرية : ص ١٠٠ س ٢٨ - ٣٠

(٥) أبو على شقيق بن إبراهيم بن على البلخى ، من مشايخ خراسان . صاحب إبراهيم بن أدهم ، وأخذ عنه الطريق ، وهو أستاذ حاتم الأصم . كان من أثرياء قومه ويقال إنه كان له ثلثمائة قرية ، ثم ترهد ، ومات فقيرا لا يجد كفته . كما أنه كان من كبار المجاهدين فى سبيل الله . يرى الذهبى أنه منكر الحديث . وقيل إنه أول من تكلم بكورة خراسان ، فى علم الأحوال . مات سنة ثلاث وخمسين ومائة .

ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج ١ ص ٢٨٣

الذهبي : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٤٤٩

« ثلاثة أشياء ، ليس بد للعبد من القيام بها . فمن عمل بها ، أدخله الله الجنة ، وعاش في الدنيا بالروح والرحمة . ومن ترك واحدة منها ، فليس له بد من أن يترك الاثنتين . وإن أخذ بواحدة منها ، فليس له بد من أن يأخذ بها جميعاً ، لأنهن متشابهات . ولو شئت قلت : الثلاثة في الواحدة . ولكن الثلاثة أوضح وأبين . فمن تركها ، وضعها ، دخل النار . ومن ترك واحدة منها ، ترك الاثنتين . فتفقهوا وأبصروا ، فإذا بُصِّرتم فتبصروا .

أولها : أن توحد الله تعالى ، بقلبك ولسانك ، وعملك ، فإذا وحدته بقلبك ، واعتقدت ألا إله غيره ، ولا نافع ولا ضار غيره ، فإنه لا بد لك من أن تنطق به ، فيرتفع إلى السماء .

والثانية : ليس لك بد من أن تجعل عملك كله لله لا لغيره . وأنت لاتجعل عملك لغيره ، إلا طمعا فيه ، أو حياء ، أو خوفاً منه . فإذا خفت ، أو طمعت في غيره - وهو مالك الأشياء ، ورازقها - فقد اتخذت إلهاً غيره ، وأجللته وعظمته لأنك استحييت منه ، وخفته وطمعت فيه ، فأذهب ذلك عنك مافي قلبك ، من توحيد الله ، وسلطانه ، وعظمته ، فاعرف ذلك .

فإذا صرت مخلصاً بهذا القول عاملاً به ، عالماً أنه لا إله إلا هو ؛ فليكن هو أوثق عندك من الدينار والدرهم ، والعم والخال ، والأب والأم ، ومن على ظهر الأرض . فإنك إن تكن على غير ذلك ، ينتقض عليك ضميرك ، وتوحيدك ، ومعرفتك إياه . فهاتان خصلتان ، ليس لك منهما بد ، ويتبع بعضها بعضاً .

والثالثة : إذا كنت بهذه الحال ، فأقمت هذين الأمرين - التوحيد والإخلاص ، والتوكل عليه - فارض عنه ، ولا تسخط في شيء يحزنك ، من خوف ، أو جوع ، أو طمع ، أو رخاء ، أو شدة . إياك والسخط . وليكن قلبك معه ، لا يُزَلَّ عنه طرفة عين . فإنك إن أدخلت في قلبك السخط عليه ، فإنك متهاون به ؛ فينتقض عليك توحيدك .

فعليك بالأولى : التوحيد والإخلاص ، فاعرف ذلك . وافهم هذه الثلاث خصال ، تعزز بها . وإياك أن تضعها ، فتقذف في النار . ولا ترى في الدنيا

قرة عين » (١) .

وليس للصوفي المتوكل فكر ، وراء الساعة التي هو فيها . سأل شقيق مرة هؤلاء الذين يتحلقون ، منصتين إلى عظته : أرأيتم إن أماتكم الله اليوم ، يطالبكم بصلاة غد ؟ » قالوا : « لا ! يوم لا نعيش فيه ، كيف يطالبنا بصلاته ؟ ! » فقال شقيق : « فكما لا يطالبكم بصلاة غد ، فأنتم لا تطلبوا منه رزق غد ؛ عسى ألا تصيروا إلى غد ! » (٢) .

وليس غريبا - جريا مع النتائج العملية لمحاولة الحياة مع التوكل - أن تقرأ هذه النصيحة ، التي تعطي لمن يريد أن يبلغ غاية هذا المذهب : « ليحفر لنفسه قبرًا ، ويدفنها فيه » (٣) .

والمتأخرون من الصوفية ، يرون أن السعى في سبيل تحصيل الرزق ، متفق تمام الاتفاق مع « التوكل » (٤) بدليل قول الرسول : « اعقلها وتوكل » (٥) . وهم يعرفون التوكل بأنه : « حال يعتادها القلب ؛ لا تفسد إلا

(١) أبو نعيم : حلية الأولياء ج ٨ ص ٦٤

(٢) المصدر نفسه . ج ٨ ص ٦٩

(٣) قال بعضهم « من أراد أن يقوم بحق التوكل ، فليحفر لنفسه قبرًا ، ويدفنها فيه ، وينس الدنيا وأهلها . لأن حقيقة التوكل ، لا يقوم له أحد من الخلق على كماله »
اللمع : ص ٥٣

ويقول أبو سعيد الخراز : « دخلت البادية مرة بغير زاد ، فأصابتنى فاقة . فرأيت المرحلة من بعيد ، فسررت بأني وصلت . ثم فكرت في نفسي أنني سكنت ، واتكلت على غيره ، فأليت ألا أدخل المرحلة ، إلا أن أحمل إليها . فحفرت لنفسى في الرمل حفرة ، وواريت جسدى فيها إلى صدرى ، فسمعوا صوتا فى نصف الليل عاليا : يا أهل المرحلة ! إن لله تعالى وليا ، خبس نفسه فى هذا الرمل ، فالحقوه . فجاءنى جماعة فأخرجونى ، وحملونى إلى القرية » .

الرسالة القشيرية : ص ١٠٤ س ١٣ - ١٨

(٤) يقول القشيري : « واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب . بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، إن تعسر شئ فبتقديره ، وإن اتفق شئ فبتيسيره .

المصدر نفسه : ص ٩٩ س ٢١ - ٢٣

(٥) عن أنس بن مالك قال : « جاء رجل على ناقه ، فقال : يا رسول الله ! أدعها وأتوكل ؟ » فقال : « أعقلها وتوكل » .

المصدر نفسه : ص ٩٩ س ٢٥ ، ٢٦

بالأفكار التي تجلب على النفس لذة » . فقد جعلوا مما يطعن في التوكل ، أن الجنة موضع مرغوب عن النار ^(١) .

فأى نوع من الخلق ، يمكن أن تنتجه نظرية كهذه النظرية ؟
فأما في أحط منازلها ، فعاطل ضليل ، يعيش كلاً على غيره . وأما في أعلاها فدرويش مسالم ، يظل ساكناً وسط زعازع الأحزان ؛ ويقابل المدح والذم - على السواء - بعدم مبالاة ، ويلقى الأذى ، والضرب ، والعذاب ، والموت ، على أنها أحداث جارية في مأساة الحظ الأبدية .
وليس هذا السلوك الرزين - على أى حال - غاية ماتطمح إليه الصوفية . بل ماتطمح إليه ، لا ينبثق إلا من الحب ، حين يصير استسلام النفس إلى ولع بها . وسأتحدث عن ذلك في حينه .

الذكر :

ومن بين العناصر الإيجابية في « الطريق » ، عنصر أجمع متصوفة المسلمين على اعتباره أساس الدين العملي ، وأعني به الذكر ^(٢) . تلك الرياضة ، التي يحسن معرفتها القارئون الغربيون للوصف الدقيق ، الذي ذكره « لين Lane » في كتابه « المصريين المحدثون Modern Egyptians » ؛ وما ذكره عنه الأستاذ « ماكدونالد D. B. Macdonald » في مؤلفه « اتجاهات الإسلام Aspects of Islam » .

ولعل خير ما يقابل لفظ « ذكر » هو كلمة « Mentioning التلطف » أو

(١) يقول أبو موسى الديلي : « قيل لأبي يزيد البسطامي : ما التوكل ؟ فقال لي : ماتقول أنت ؟ قلت : إن أصحابنا يقولون : لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ، ماتحرك لذلك سرك . فقال أبو يزيد : نعم ! هذا ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة ينعمون ، وأهل النار في النار يعذبون ، ثم وقع لك تمييز عليهما ، خرجت من جملة التوكل » .

المصدر نفسه : ص ٩٩ س ١٣ - ١٦

(٢) يقول القشيري : « الذكر ركن قوى ، في طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة في هذا الطريق . ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام الذكر . والذكر على ضربين : ذكر اللسان وذكر القلب . فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب ، والتأثير لذكر القلب . فإذا كان العبد ذاكرة بلسانه وقلبه ، فهو الكامل في وصفه ، في حال سلوكه » .

الرسالة القشيرية : ص ١٣٢

« Remembering التذكر » أو « Thinking التفكير » .

وفي القرآن أمر للمؤمنين بأن يذكروا الله كثيرا . والمراد به عمل من أعمال العبادة بسيط ، ليس للتصوف رائحة فيه . ولكن الصوفية اتخذوا رياضة ، تكرير اسم الله ، أو ترديد بعض العبارات الدينية ، مثل (سبحان الله ، لا إله إلا الله) مصحوبا بتنغيم آلى ، وحشد تام لجميع القوى حول هذه الكلمة المفردة ، أو العبارة . وهم يجعلون لهذه العبادة غير الموقوته من الأهمية ، فى وصلهم بالله وصلا غير منقطع ، مالا يجعلون للصلوات الخمس ، يؤديها فى أوقاتها المفروضة بقية المسلمين ^(١) .

والذكر يكون لفظا ، ويكون صمتا . ومن الخير - جريا على الأصل - أن يتعاون اللسان والقلب جميعا . وقد أمر سهل بن عبد الله أحد مريديه ، أن يديم قول « الله ، الله » طول نهاره ، من غير انقطاع . فلما اعتاد ذلك ، أمره أن يقولها فى ليله ، حتى كانت تخرج من شفتيه ، وهو فى نومه ؛ فقال له : اشتغل بها فى صمتك . وظل هكذا حتى تشرب كيائه كله التفكير فى الله . وذات يوم ، سقط على رأسه كتلة من خشب ؛ فانساب الدم من جرحه ، يكتب على الأرض (الله ، الله) ^(٢) .

وقد وصف الغزالي أسلوب الذكر ، والنتائج المترتبة عليه ، فى عبارة لخصها : « ماكدونالد Macdonald » فيما يلى :

« عليه أن يلزم قلبه الحال ، التى يكون فيها وجود شئ وعدم وجوده سواء عنده . ثم لينفرد فى بعض الزوايا ، مؤديا ماوجب عليه من الفرائض لاغير . ولا يشغلن نفسه بتلاوة القرآن ، أو تدبر معانيه ، أو مدارس كتب

(١) يقول القشيري : « ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت ، بل مامن وقت من الأوقات ، إلا والعبد مأمور بأن يذكر الله ، إما فرضا ، وإما ندبا . والصلاة - وإن كانت أشرف العبادات - فقد لاتجوز فى بعض الأوقات ، والذكر مستدام فى عموم الحالات . قال الله تعالى : ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾ الرسالة القشيرية : ص ١٣٣ س ٢ - ٦

(٢) يقول الجريرى : « كان بين أصحابنا رجل يكثر أن يقول (الله ، الله) فوقع يوما على رأسه جذع ، فشج رأسه ، وسقط الدم ، فاكتب على الأرض (الله ، الله) . المصدر نفسه : ص ١٣٤ س ١٧ - ١٩

الحديث ، أو ماجرى فى هذا الباب . وألا يجعل لغير الله تعالى سبيلا إلى قلبه . ثم لا يكف فى خلوته عن ترديد اسم الله « الله ، الله » ؛ جاعلا فكره فيه ، فسيصل إلى الحال التى تقف فيها حركة لسانه ، وكأن الكلمة تنساب منه انسيابا . فليستدم ذلك حتى تنقطع حركة لسانه أصالة ، ويجد قلبه مداوما للفكر فى الله ؛ ثم يلزم ذلك حتى تذهب حروف الكلمة وصورتها من قلبه ، ولا يبقى غير مدلولها وحده ، متعلقا بالقلب ، غير منفصل منه . حينئذ يصبح كل شئ رهن إرادته ، غير رحمة الله ، فإنها لا تدخل فى مشيئته وإرادته . وقد عرض نفسه الآن لنسمات الرحمة ، وليس عليه إلا أن ينتظر مايفتح الله به عليه ، كما فعل الله بأنبياؤه وأوليائه .

فإن هو اتبع هذا الطريق ، كان على بينة من أن نور الحق سيشع فى قلبه لا محالة . وهذا النور ، فى أول أمره ، غير مستقر ، كالقبضة من الضوء ، تجئ وتذهب ، ولعلها - فى بعض الأحيان - أن تتخلف ، فإن عادت فهى حينئذ مقيمة وحينئذ لا تكاد ؛ فإن أقامت فهى حينئذ طويلة اللبث ، وحينئذ قصيرتها .

وقد جمع بعض الصوفية خلاصة الأمر فى قوله :
« أدنى الذكر أن تنسى مادونه . ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر فى الذكر عن الذكر » (١) .

* * *

واستدامة الذكر تقع على وجوه مختلفة . فالشبلى ، حين كان مريدا ، كان يصحب حزمة من العصى ، إلى مغارة كل يوم ، فإذا فتر انتباهه ، ضرب نفسه ، حتى تتحطم العصى . وكثيرا ماكانت تنفذ الحزمة قبل المغرب ، فيظل يضرب يديه ورجليه فى حائط المغارة (٢) .

والرياضة الهندية فى إمساك النفس أو إرساله ، عرفها الصوفية فى القرن الرابع الهجرى - التاسع الميلادى - كثيرا مااستعملوها بعد ذلك . والموسيقى ، والغناء والرقص ، عند جماعات الدراويش ، وسائل محببة فى

(١) القشيري : الرسالة القشيرية - ص ٣٨ س ٢٢ ، ٢٣

(٢) الرسالة القشيرية : ص ١٧٢ س ٥ - ٨

اجتذاب حالة الغيبوبة ، التي يسمونها (الفناء) هذه الحال التي تعد قمة الطريق ، بل سبب وجودها ، كما يظهر من تعريفها السابق .

المراقبة :

ونحن نعرف في المراقبة نوعا من تركيز الفكر ، مماثلا لما يدعى في البوذية « الذيانا والسماذى Dhyana & Samadhi » ^(١) وذلك هو ماعناه النبي حين قال « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ^(٢) وكل إنسان يشعر - صادقا - أن الله مطلع عليه ، لا ينفك حابسا نفسه على مراقبة الله ؛ ولا تتطرق إليه أفكار أثيمة ، ولا تجد الشكوك الشيطانية سبيلها إلى قلبه .

وقد اعتاد النورى أن يراقب نفسه أتم مراقبة ، حتى لا تتحرك الشعرة على جسمه . وقال إنه تعلم تلك العادة من قطعة ، كانت ترقب جحر فأر ، وأنها كانت أكثر منه سكونا .

ويحكى عن أبى سبيد بن أبى الخير ^(٣) ، أنه كان يديم النظر إلى سرتة .

(١) الذيانا « Dhyana » هى التأمل والمراقبة « Meditation » ، والسماذى « Samadhi » هى الاستغراق والفناء « Absorption » . والذيانا عامل هام فى الرياضة الدينية عند البوذيين ، وهى الطريق إلى السماذى . وحين يرقى المتأمل إلى مرتبة السماذى ، يصبح المراقب والمراقب واحدا .

Incyclopaedia of Religion & Ethics. V. 4, P. 702

(٢) الرسالة القشيرية : ص ١٤ س ٤

(٣) أبو سعيد فضل الله بن أبى الخير ، شاعر فارسى ، ولد فى غرة المحرم عام ٣٥٧ (٧ ديسمبر سنة ٩٦٧) فى « ميهنة » - أهم مدينة فى إقليم « خايران » بخراسان ، وتلقى دروسه الأولى فى مسقط رأسه ، ثم رحل إلى مرو ، فدرس الفقه على أبى عبد الله المصرى الشافعى ، ثم على أبى بكر القفال . ويقال إنه ذهب إلى سرخس حيث تلقى العلم على أبى على ظاهر بن أحمد ، وهنا تعرف على أبى الفضل بن حسن ، تلميذ أبى نصر السراج . فاعتنق مذاهب الصوفية . ورجع إلى ميهنة ، فاعتزل الناس سبع سنين . ثم رحل إلى أبى عبد الرحمن السلمى ، فبال الخرقه من يديه ، وقفل راجعا إلى مسقط رأسه ، حيث مات فى ٤ شعبان سنة ٤٤٠ (١٢ يناير سنة ١٠٤٩) .

دائرة المعارف الإسلامية : ج ١ ص ٣٥٢ - ٣٥٤

وقد قيل : إن الشيطان يضربه الصرْع ، إذا اقترب من رجل راقب نفسه على هذا النحو ، شأنه في ذلك شأن من يَصْرَع من الناس .

* * *

وإذا كان هذا الفصل ، قد أمد القارئ بصورة واضحة ، للمعالم الرئيسية ، التي تقوم عليها الرياضة التمهيدية للصوفى ، فقد أدى ما أريد منه .
وعلى أن نتصور الصوفى الآن ، وقد منحه شيخه « المُرْقَعَة » أو « الخِرْقَة » ، التي تتخذ علامة ظاهرة ، على أن الصوفى قد نجح فى اجتياز الدرجات الأولى ، من سلم « الطريق » وأنه يتقدم الآن ، فى خطى غير وطيدة ، صوب « النور » ؛ كما يصل المسافرون ، نال منهم عنت السفر ، غاية نَقْب عميق ؛ وفجأة تبهرهم أضواء الشمس ، فيغطون أعينهم بأيديهم .

* * *

الفصل الثاني

التجلي والجذب

ليس في طوق عين البصر أن ترى الله ، الذي وصف في القرآن بأنه ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور : الآية ٣٥] ، وإنما يرى بعين البصيرة وحدها . وسأعود ، في الفصل الآتي ، إلى تبين هذه الحاسة الروحية . على أني لن أزج بنفسى الآن ، في تعقيدات السيكولوجية الصوفية ، أكثر مما ينبغي .

وقد عُرِفَتْ « رؤية القلب » بأنها ، « نظر القلوب ، إلى ما توارى في الغيوب ، بأنوار اليقين ، عند حقائق الإيمان » . وذلك ما عناه على ، حين سئل « هل نرى ربنا ؟ » . فقال : « وكيف نعبد من لم نره ؟! » ^(١) . ونور اليقين ، الذي يرى به القلب ربه ، هو شعاع من نور الله ذاته ، قذف به فيه . وبدون هذا الشعاع لا تكون الرؤية ممكنة ، والشمس يبصرها بضوئها المبصر . وجريا مع التفسير الصوفي للآية الشهيرة في القرآن ، حيث يشبه نور الله بمصباح ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور : الآية ٣٥] قد وضع في مشكاة ، ليست هذه المشكاة إلا قلب المؤمن ، فحديثه نور ، وأعماله نور ، وهو يسير في نور . يقول أبو يزيد البسطامي : « من وعظ بالديمومة ، فلا بد له أن يشتمل على مصباحها » .

والنور الذي يشع في قلب الصوفي ، الذي كشف عنه الغطاء ، يزوده بقوة خارقة ، هي « الفراسة » . والصوفية - وإن قالوا بقول بقية المسلمين ، بأن محمداً خاتم الأنبياء ، وهو « الكلمة » أو أول المخلوقات من وجه آخر - يدعون لأنفسهم شيئا من الإلهام .

(١) اللمع : ص ٣٥٠ س ٦ - ٩

ولما سئل النورى عن أصل الفراسة ، تلا الآية التى يذكر الله فيها ، أنه نفخ فى آدم من روحه ^(١) . على أن الصوفية ، الذين يتشددون فى الاستمساك بالسنة ، ويعارضون - فى صرامة - القول بأن الروح الإنسانية قديمة باقية ، يؤكدون أن الفراسة نتيجة العلم والتبصر ، اللذين يسميان - على سبيل المجاز - « نورا » أو « إلهاما » يخلقهما الله ، ويمنحهما المصطفين من عباده ^(٢) .

وقول الرسول : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى » ^(٣) تعززه هذه الروايات :

« حدث أبو عبد الله الرازى ، ^(٤) قال : أهدانى ابن الأنبارى ^(٥) عباءة صوف ، فرأيت على رأس الشبلى قلنسوة تماثلها ، فوق فى قلبى أن لو كانتا كلتاهما لى . فلما هم الشبلى أن ينصرف ، نظر إلّى ، كشأنه حين يريد أن

(١) سئل أبو الحسين النورى : « من أين تولدت فراسة المتفرسين ؟ » . فقال : « من قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ فمن كان حظه من ذلك النور أتم كانت مشاهدته أحكم . وحكمه بالفراسة أصدق . ألا ترى كيف أوجب نفخ الروح فيه السجود له بقوله ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ .

الرسالة القشيرية : ص ١٣٩ س ٨ - ١١

(٢) يعلق القشيري على رأى النورى فيقول : « هذا الكلام ، من أبي الحسين النورى ، فيه أدنى غموض وإبهام ، بذكر نفخ الروح ، لتصويب من يقول بقدّم الأرواح ، ولا كما يلوح لقلوب المستضعفين . فإن الذى يصح عليه النفخ ، والاتصال والانفصال ، فهو قابل للتأثير والتغيير ، وذلك من سمات الحدوث . وإن الله تعالى ، خص المؤمنين ببصائر وأنوار ، بها يتفكرون . وهى فى الحقيقة معارف ، وعليه يحمل قوله ﷺ : (فإنه ينظر بنور الله) أى بعلم وبصيرة يخصه الله تعالى به . ويفرده به من دون أشكاله . وتسمية العلوم والبصائر أنوارا غير مستبعد ، ولا يعد وصف ذلك بالنفخ ، والمراد به الخلق » .

الرسالة القشيرية : ص ١٣٩ س ١١ - ١٦

(٣) المصدر نفسه : ص ١٣٧ س ٢٢

(٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المغربي الرازى : صاحب يوسف بن الحسين الرازى ، وعبد الله الخراز الرازى ، ومظفر القرميسينى ، والجريرى ، وابن عطاء . وكان من أفتى المشايخ وأرسخهم ، وأحسنهم خلقا وأعلامهم همة ، وأتمهم دينًا وورعا .

السلمى : طبقات الصوفية : ١٣٢ و

(٥) سهل بن وهبان الأنبارى من أقران الجنيد .

حلية الأولياء : ج ١٠ ص ٣٥٩

أتبعه . فتبعته إلى داره ، فلما دخل ، أمرني أن أخلع العباءة ، فأخذها مني ، ثم طواها ، فألقى فوقها قلنسوته ، ثم دعا بنار فأحرقهما جميعا » ^(١) .

« وروى أن الجنيد ، لما رغبه السرى السقطي ^(٢) في أن يعظ الناس ، والجنيد متردد أن يفعل ، لأنه لم يكن يرى نفسه أهلا لذلك العمل ، فرأى النبي ليلة الجمعة ، يأمره أن يعظ الناس ، فاستيقظ ، وقصد دار السرى ، قبل أن يطلع النهار فلما طرق الباب ، فتح له السرى ، وقال : « ماصدقتني حتى جاءك الرسول وأخبرك » ^(٣) .

« وروى أن سهل بن عبد الله ^(٤) كان جالسا في المسجد الجامع ، إذا أخذ الحر حمامة فسقطت أمامه ، فصاح سهل : رحماك ربي ! قد مات الساعة شاه الكرمانى ^(٥) !

فكتب ذلك عنه ، ووجد صحيحا » ^(٦) .

فإذا تطهر القلب من أدناس الرذيلة ، والأفكار الأثيمة ، هجم عليه نور اليقين ، وجعله مرآة مجلوة ، فلا يستطيع أن يقرب الشيطان ، حتى لا يلحظ . ومن هنا جاء قول بعض العارفين : « إذا عصيت قلبي عصيت

(١) الرسالة القشيرية : ص ١٣٩ س ٢٤ - ٢٨

(٢) سرى بن المغلس أبو الحسن السقطي . خال الجنيد وأستاذه . صحب معروفا الكرخي ، وهو أستاذ البغداديين وإمامهم في وقته . مات سنة إحدى وخمسين ومائتين . السلمي : طبقات الصوفية : ١٠ ظ

(٣) الرسالة القشيرية : ص ١٤٣ س ٩ - ١٦

(٤) سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن ربيع ، أبو محمد التستري . أحد أئمة القوم ، وعلمائهم ، والمتكلمين في علوم الرياضات ، والإخلاص ، وغيوب الأفعال صحب خاله محمد بن سوار ، وشاهد ذا النون المصري سنة خروجه بمكة . مات سنة ثلاث وثمانين ومائتين .

السلمي : طبقات الصوفية : ٥٢ ظ .

(٥) شاه بن شجاع ، أبو الفوارس الكرمانى . كان من أولاد الملوك . صحب أبا تراب النخشبى ، وأبا عبد الله بن الذراع البصرى . وله رسالات مشهورة منها المثلة التى سماها (مرآة الحكماء) . مات قبل الثلاثمائة .

السلمي : طبقات الصوفية : ٤٨ ظ .

(٦) الرسالة القشيرية : ص ١٤٠ س ٥ - ٧

ربى . وإلى من امتلأ قلبه بالنور ، وجه الرسول قوله : (استفت قلبك ، وإن أفتاك المفتون) ^(١) ذلك شئ خير من تلقى الدين بالتعلم .

ولست فى حاجة هنا ، إلى معالجة موضوع ، سأعالجه فى الفصل التالى ، وهو : إلى أى حد تتفق دعاوى هذا الضمير ، الذى يفترض لنفسه العصمة ، مع ظاهر الدين والأخلاق ؟

وقد سأل النبى ربه أن يجعل فى سمعه نورا ، وفى بصره نورا ؛ ثم ذكر عدة أعضاء من جسده ، وختم بقوله : (واجعلنى كلى نورا) ^(٢) .

والإشراق ، الذى يتعاضم لألاؤه شيئا فشيئا ، يرقى به الصوفى إلى التأمل فى الصفات الإلهية . فإذا غاب إدراكه أصلاً ، تجوهر فى نور الوجود الربانى . وهذا هو « مقام الإحسان » وفى القرآن ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . [سورة العنكبوت : آية ٦٩] وفى الحديث : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه) ^(٣) .

ولن أضيع الوقت ، أو أستنفد صبر القراء ، فى السعى وراء ترتيب درجات الإشراق المختلفة ، ووصفها . ولعلها أن تُصوّر على التجوز ، ولكن إيضاحها يستعصى على اللغة العلمية ، فلندع الصوفية أنفسهم يتحدثون ونحن مسلمون بداءة أن علمهم كثيراً ما يستعصى على الفهم ولكنه يحمل من الحق أكثر مما نأمل أن يحمل التلخيص والاقتباس .

وهاتان عبارتان منقولتان عن أقدم مؤلف فارسى عن الصوفية ، وأعنى به « كشف المحجوب » للهجویری .

١ - « روى عن السرى السقطى أنه قال : اللهم ماعذبتنى بشئ ، فلا تعذبنى بذل الحجاب . فإننى إن لم أحجب عنك ، هان بذكرك ، والتأمل فىك كل عقاب ينزل بى . وإن حجبت عنك ، صارت رحمتك لى عذابا . وليس فى النار عذاب آلم ولا أنكى من الحجاب . فلو تجلى الله فى النار لأهل النار ، ماذكر العصاة من المؤمنين الجنة أبداً ، لأن رؤية الله تملئهم

(١) اللمع : ص ٤٥ س ١٣ - ١٩

(٢) ذخائر الأعلاق : ص ٢١

(٣) الرسالة القشيرية : ص ١١٤ س ٣

فرحاً لا يحسون معه عذاباً جسدياً ، وليس في الجنة نعيم أعظم من رؤية الله . فلو أن أهلها حصلوا كل نعيم فيها ، وأضعافه من النعيم ، وحرّموا رؤية الله . لذهبت نفوسهم حسرات . ولذلك كان من فضل الله . أن مكن قلوب أحبائه من رؤيته دائماً ، حتى يمكنهم هذا النور من احتمال كل عذاب . وهم يقولون في شهودهم : إنا لنرى جميع أصناف العذاب أهون على أنفسنا من الحجاب عنك ، فإذا تجلّى جمالك لقلوبنا لم نفكر في العذاب .

٢ - هناك ، على الحقيقة ، نوعان من التأمل : أسبقهما ما كان نتيجة الإيمان الصادق ؛ والأخير نتيجة الحب والجذب ، إذ في نشوة الحب ، يصل الإنسان إلى مرتبة ، يصير فيها وجوده كله مستغرقاً في محبوبه . فلا يرى شيئاً آخر غيره . قال محمد بن واسع : مارأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه . أى : من خلال الإيمان الصحيح . وقال الشبلي : مارأيت شيئاً إلا الله ، أى : في نشوة الحب ، وحمياً التأمل . فصوفى رأى الفعل يبصره ، ورأى الفاعل ببصيرته . وآخر نشوان بالحب مصروف عن كل غير ، فلم ير إلا الفاعل . فأحدى الطريقتين « حقيقة » والأخرى « جذبية » . انتزع الدليل الواضح ، فى الأولى ، من بينات الله .

فأما فى الثانية ، فإن المشاهد قد سكر وانجذب عن طوعية . فالبينات عنده حجاب لأن من يعلم شيئاً لا يأبه لما عداه ، ومن يتعلق شيئاً يغفل ماسواه ؛ فيرفض ممارسة الله ، ومداخلته فى أفعاله وأقضيته .

وإذا صرف المحب بصره عن الخلق ، فسيرى - لا محالة - الخالق ببصيرته ، فقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [سورة النور : الآية ٣٠] : أى أن يُقفلوا أبصارهم عن الشهوات ، وبصائرهم عن المخلوقات . وأكثر الناس إخلاصاً فى رياضة النفس ، أكثرهم تمكناً فى التأمل . قال سهل بن عبد الله التستري : « لو أن واحداً أقفل عينه عن الله برهة ، فلن يهتدى طول عمره ، لأن اعتبار غير الله توكل على غيره . ومن ترك لرحمة غير الله فقد هلك » ومن أجل هذا كانت حياة المتأملين هى الوقت الذى يغنمون فيه تأملهم . فأما الوقت الذى يصرفونه فى الرؤية بالأبصار ، فلا يعدونه حياة ، وهو عندهم موت أصيل . ولذلك لما سئل أبو يزيد البسطامى عن عمره ، قال : « أربعة أعوام » فقالوا : « وكيف ذلك ؟! » قال :

« حجبتنى هذه العاجلة سبعين عاما عن الله ، فما رأيته إلا خلال الأعوام الأربعة الأخيرة . وما حُجِبَتْه من عمرك ، لاتحسبه فى حياتك » .
* * *

وقد اقتبسْتُ هذه العبارات من « المواقف للنفرى » ^(١) والنفرى مؤلف ستزداد معرفنا له كلما تقدمنا .

« وقال لى أدنى علوم القرب ، أن ترى آثار نظرى فى كل شئ ؛ فيكون أغلب عليك من معرفتك بك » ^(٢) .

قال الشارح : يريد أن أقل علوم القرب - القرب من الله - أنك إذا نظرت إلى أى شئ ، محسوس أو معقول ، أو غير ذلك ؛ فسوف ترى الله فيه رؤية أبين من رؤية الشئ نفسه . والدرجات فى ذلك متفاوتة ، فبعض الصوفية يقولون : أنهم لا يرون شيئا إلا ويرون الله بعده ، وآخرون يقولون : إنهم لا يرون شيئا ، إلا ويرون الله معه ، ويقول غيرهم : مارأينا شيئا غير الله .

قال صوفى : حججت ، فرأيت الكعبة ، ولكنى لم أر رب الكعبة ، وهذه رؤية المحجوب . ثم قال : حججت مرة ثانية ، فرأيت الكعبة ورب الكعبة ، فهذا تأمل الوجود ، الذى فيه كل شئ موجود ، أى : أنه رأى الكعبة موجودة فى رب الكعبة . ثم قال : حججت الثالثة ، فرأيت رب الكعبة ، وما رأيت الكعبة ، فهذا مقام الوقفة ، الفناء فى الوجود ، والمؤلف يشير هنا إلى التأمل فى الوجود .

وقد قيل الكثير فى الإشراق ولكن « الذكنة هى الشعار السائد » كما

(١) محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفرى ، من أهل القرن الرابع الهجرى . وصاحب كتاب (المواقف والمخاطبات) ، الذى نشره فى سلسلة « جب » التذكارية ، المستشرق الانجليزى « أربرى A. J. Arberry » سنة ١٩٣٥ . ولهذا الكتاب شرح لعفيف الدين التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٠ هـ . كما أن الشعرانى قد اختصر (المواقف) . وكان النفرى جوالا زاهدا ، لاتستقر به أرض . ويقال إنه توفى فى قرية من قرى مصر . ويقول حاجى خليفة : إنه مات سنة ٣٥٤ هـ .

مقدمة المواقف : بالانجليزية .

لواقح الأنوار : ج ١ ص ٢٣٦

(٢) النفرى : المواقف والمخاطبات : ص ٢

يقول « مفستوفيل Mephistopheles » . والتجربة الحية ، وإن تكن مرفوضة عند أكثرنا ، نستطيع أن نسمع أصداءها العالية ، ونحس وهجها المتحمس فيما خلفته . فدعني أنقل إليك مقطوعة فارسية ، للشاعر الدرويش « بابا كوهي الشيرازي » المتوفى ١٠٥٠ م .

في السوق ، وفي الصومعة ، مارأيت غير الله .
 في السهل ، وفي الجبل ، مارأيت غير الله .
 كثيرا ما أبصرته بجواري في المحنة .
 في السراء والضراء ، ما أبصرت غير الله .
 في الصلاة والصوم ، وفي التأمل والذكر .
 وفي دين الرسول ، مارأيت غير الله .
 لا الروح ولا الجسد ، ولا العَرَض ولا الجوهر .
 لا الأسباب ولا المسببات ، مارأيت غير الله .

فتحت عيني ، وبنور وجهه من حولي ،
 في كل ما كشفت عيني مارأيت غير الله .
 كالشمعة ، صُهرتُ في ناره ،
 وبين الأضواء المنبعثة ، مارأيت غير الله .

نفسى ، بعيني رأسى ، رأيتها أكمل رؤية ،
 فلما نظرت بعيني الله مارأيت غير الله .

فنيثُ في الفناء ، تلاشيت
 يا للعجب : أنا اليوم خالد ، وما رأيت غير الله .

والصوفية كلها ، تقوم على القول بأنه إذا فقدت النفس الفردية ، فقد وجدت النفس الكلية ؛ وفي لغة الدين : الجذب يهبط الأسباب التي بها تتصل الروح مباشرة بالله ، وتتحد به . والزهد ، والتطهر من الآثام ، والحب والمعرفة ، والولاية - بل وجميع الأفكار الأساسية في الصوفية - تبدأ من هذا الأصل الجامع .

ومن بين العبارات المجازية ، التي تجرى كثيرًا على السنة الصوفية ، مساوية في قليل أو كثير للجذب : الفناء ، والوجد ، والسماع ، والذوق ، والشرب ، والغيبة ، والجذبة ، والسكر ، والحال .

ومن الإرهاق الذي ليس تحته طائل ، أن نختبر في تفصيل ، تعاريف هذه الاصطلاحات ، وكثيرًا مثلها ، مما يقع في تأليف الصوفية . ولن نكون أقرب إلى فهم الجذب ، إذا وصف لنا بأنه : « سر رباني ، يمد الله به المؤمن ، الذي يراه بعين اليقين » . أو أنه . « الشعاع الذي يتحرك في أصل الروح ، ويسببه الشوق إلى الحب » .

* * *

وليس في الطوق مناقشة نظرية الجذب الإسلامية ، دون الإشارة إلى اصطلاحين سلفا ، وأعني بهما : « الفناء » و « السماع » . « والفناء » كما أشرت في المقدمة - ذو أطوار ، ووجوه ، ومعان مختلفة يمكن أن تلخص فيما يلي :

أ - تغيير معنى للروح ، بإفناء ميولها ورغباتها جميعًا .

ب - تجريد عقلي ، أو فناء العقل عن المدركات ، والأفكار ، والأفعال والأحاسيس ، بانهضاره في التفكير في الله . والتفكير في الله - هنا - معناه التأمل في الصفات الإلهية .

ح - إبطال جميع قوى الفكر الواعي . وأعلى درجات الفناء لا يوصل إليها إلا حين لا يدرك في الفناء الفناء . وذلك ما يدعوه الصوفية « فناء الفناء » . فالصوفي قد شعر آنئذ بالتأمل في الوجود الرباني .

والدرجة القصوى للفناء ، الفناء في الذات ، تمهيد للبقاء في الله ، وسنعالجه على نحو أتم في الفصل السادس .

والطور الأول يشبه « النرفانا » البوذية تمام الشبه ، إذ هي فناء صفات النفس ، وأحوالها الذميمة . وهذا الفناء يستلزم ، في الوقت عينه ، بقاء الصفات والأحوال الحميدة . وتلك طريقة جذبية حتما ، مادامت جميع صفات النفس شرا بالنسبة إلى الله . ولن يستطيع أحد أن يجعل من نفسه « ربانيا » - أى خالصا من « اثْنَيْيْتِه » - بل لابد أن يُجعل له ذلك ، بالنور الرباني ، يلقي في قلبه .

وبينما يشير الطور الأول إلى « النفس الأخلاقية » ، يشير الثاني إلى « النفس العاقلة المدركة » . فإذا استعملنا الترتيب ، الذي يرتضيه كافة متصوفة المسيحية اعتبرنا الطور الأول ، إكمالا لحياة التطهر ، والثاني غاية لحياة الإشراف . فأما الطور الثالث والآخر ، فهو أعلى درجة في الحياة التأملية .

وكثيرا - وإن لم يكن دائما - ما يصحب الفناء فقد الإحساس .

والسرى السقطى ، وهو من مشاهير صوفية القرن الثالث الهجرى ، يقول في هذا : « إن الرجل يضرب وجهه بالسيف ، وهو لا يحسه » ^(١) . وكان أبو الخير الأقطع ^(٢) مصابا بغنغرين في قدمه : فرأى الأطباء ألا مناص من قطعها ولكنه أبى أن يكون ذلك . فقال مريدوه : « بل اقطعوها وهو يصلى ، فإنه لا يشعر حينئذ » . فعمل الأطباء بنصيحتهم . فلما أتم أبو الخير صلاته ، وجد أن الأمر قد انقضى .

(١) يقول الجنيد : « ذكر يوما عند السرى السقطى ، رحمه الله تعالى ، المواجه الحادة ، فى الأذكار القوية ، وما جانس هذا ، مما يقوى على العبد . فقال سرى رحمه الله ، وقد سألته فيه ، فقال : نعم ! يضرب وجهه بالسيف ، وهو لا يحسه » . قال أبو القاسم رحمه الله : كان عندي ، فى ذلك الوقت ، أن هذا لا يكون . فراجعتة أنا فى ذلك الوقت : فقلت له : يضرب بالسيف ولا يحس ؟ ! . انكارا منى لذلك . فقال : نعم ! يضرب بالسيف ولا يحس . وأقام على ذلك » .

اللمع . ص ٣٠٦ س ٥ - ١٢

(٢) أبو الخير الأقطع التينانى . أصله من الغرب . صحب أبا عبد الله بن الجلاء وغيره من المشايخ . وكان أوحدا فى طريقته فى التوكل . كان يأنس إليه السباع والبهائم . كما كان حاد الفراسة . مات سنة نيف وأربعين وثلاثمائة .

السلمى : طبقات الصوفية : ٩٥ و .

وإنه لمن العسير أن يدرك المرء أن واحدا بلغ الغاية في الفناء ، يستطيع أن يلتزم حدود الشريعة ، هذا الالتزام الذي يوجبه الصوفية من أهل السنة . ومن هنا تأتي نظرية « الولاية » . فإن الله يحفظ وليه من عصيان أوامره . ولقد حكوا عن أبي يزيد ، والشبلى ، وغيرهم من الأولياء ^(١) « أنهم كانوا دائما في حال انجذاب ، حتى يحين وقت الصلاة ، فيعودوا إلى إدراكهم ، فإذا أدوا صلاتهم عادوا إلى إنجذابهم ثانية » .

وغية الانجذاب لا تكون ، في نظرهم ، عن خيرة ؛ وإن تكن هناك أحوال تعتبر ممهدة لحدوثها . وقد تحدث للرجل من طريق رؤية جلال ربه ، أو من انكشاف قدرته لقلبه . وذلك كشأن أبي حمزة ^(٢) إذ كان يسير في طرق بغداد ، متأملا في القرب من ربه فانجذب فجأة ، وهام على وجهه ، لا يرى ولا يسمع ، حتى عاد إليه إدراكه ، فوجد نفسه في الصحراء . وقد تبقى الغيبة من هذا النوع الأسابيع العديدة فقد روى عن سهل بن عبد الله ، أنه ظل مرة في انجذابه خمسة وعشرين يوما ، لا يطعم ، وإن أجاب على مسائل ، يسألها له أهل العلم . وإنه ليكون في الشتاء ، وإن قميصه ليتصبب عرقا .

وسرعان ما عرف الصوفية ، أن الإنجذاب يمكن أن يستعان عليه بالصنعة . لا بجمع الفكر ، وبالذكر ، وغيرها من طرق « التنويم الذاتي Autohypnosis » البريئة وحدها ، بل كذلك بالموسيقى والغناء والرقص . وهذه جميعا ، تدخل تحت كلمة « السماع » التي لاتدل إلا على الاستماع للغناء .

(١) قالت امرأة أبي عبد الله التروغندي : « لما كانت أيام المجاعة ، والناس يموتون من الجوع ، دخل أبو عبد الله التروغندي بيته ، فرأى في بيته مقدار منوين حنطة . فقال : الناس يموتون من الجوع ، وفي بيتي حنطة ؟! . فخولط في عقله ، فما كان يفتق إلا في أوقات الصلوات ، يصلى الفريضة ثم يعود إلى حالته ، فلم يزل كذلك إلى أن مات » .

الرسالة القشيرية : ص ٤٦ س ١١ - ١٥

(٢) أبو حمزة البغدادي ، من أولاد عيسى بن أبان ، صاحب السرى السقطي ، وبشرا الحافي . وكان ينتمي إلى حسن المسوحى ، كما كان عالما بالقراءات . توفي سنة تسع وثمانين ومائتين .

السلمى : طبقات الصوفية : ٣٥ و .

والمسلمون سريعو الاستجابة إلى تأثير الأصوات الجميلة ، سرعة غير عادية ؛ لا يشك في ذلك من قرأ « ألف ليلة وليلة » . إذ يذكرون كيف أن الأبطال - رجالا ونساء - يصرعون لمغنية تحتضن عودها ؛ وتنشد عليه بضعة أبيات من الشعر العاطفي . والأسطورة حقيقة في واقع الحياة . فكتاب الصوفية ، إذا عرضوا لظواهر الجذب ، فعلوا مثل ذلك ، في الفصل الذي يعقدونه تحت عنوان « في السماع » ^(١) . والهجویری ، في الفصل الذي عقده بهذا العنوان ، في القسم الأخير من كتابه « كشف المحجوب » ساق تلخيصا جميلا لرأيه ورأى غيره من المسلمين وأردف ذلك بقصص كثيرة ، عن أناس وقع لهم الجذب ، عند سماعهم آية من القرآن ، أو هاتفا ، أو شعرا ، أو موسيقى . بل قد قيل عن كثيرين ، إنهم ماتوا من تعاضم ذلك عندهم .

وأضم إلى ذلك ، على سبيل البيان ، جريا على قول صوفي مشهور ، إن الله قد ألهم كل مخلوق أن يسبحه بلسانه ، فالأصوات كافة ، في العالم أجمع - على ما هي عليه - تكون لحنا جامعا يمجّد الله به نفسه . وإذا فهؤلاء الذين كشف الله عن قلوبهم ، ومنحهم الإدراك الروحي ، يسمعون صوته في كل مكان ؛ فيحصل لهم الجذب ، وهم يصغون إلى ترديد المؤذن ، أو نداء السقاء يحمل القربة على عاتقه ، أو لعله عزيف الريح ، أو نغاء الشاء ، أو مكاء الطائر .

« وفيثاغورس Pythagoras » ^(٢) ، و « أفلاطون Plato » مسئولان عن نظرية أخرى ، كثيرا ما أُلْمِعَ إليها الشعراء من الصوفية . وهي أن السماع ، يوقظ في الروح ذكرى الألحان السماوية ، التي كانت تسمعها قبل الوجود ، قبل أن تنفصل الروح عن الله .

(١) انظر الفصول القيمة عن السماع في :

الغزالي : إحياء علوم الدين : ج ٢ ص ١٨٢ - ٢١٠

القشيري : الرسالة القشيرية : ص ١٩٧ وما بعدها .

السراج : اللمع : ص ٢٦٧ - ٣٠٠

(٢) فيلسوف رياضي يوناني ، من فلاسفة القرن السادس قبل الميلاد . ولد في ساموس ، وأنشأ مدرسة فكرية تسمت باسمه ، كان لها الفضل في نواح عديدة من العلوم الرياضية والفلكية .

يقول جلال الدين الرومى :
 أغنية الأجواء فى تقلباتها .
 هى ما ينشده الناس بالصوت والعود .
 وحين كنا فى ظهر آدم .
 سمعنا هذه الألحان فى الفردوس .
 والتراب والماء ، وإن ألقيا علينا حجابا .
 إلا أننا نستعيد ذكريات هذه الأغاني السماوية .
 لكن كيف ، ونحن محوطين بهذه الحجب الترابية .
 تصلنا ألحان هذه الأجواء الراقصة !!؟

* * *

ولم تكد تنتشر رياضة السماع بين الصوفية ، حتى اختلفت آراؤهم فيها . فبعضهم يراها محمودة مشروعة بينما يراها الآخرون بدعة ضارة ، وتحريضا على الرذيلة . وقد اتخذ الهجویری رأيا وسطا ، عبر عنه فى قول ذى النون : « السماع وارد حق ، يزعج القلوب إلى الحق . فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق » ^(١) . ثم بين على ذلك أن السماع لا يوصف بالحسن ولا بالسوء ، وإنما يحكم عليه بنتائجه . فإذا ذهب راهب إلى حانة ، صارت له صومعة ، وإذا ذهب سكير إلى صومعة صارت له حانة . فمن تشرب قلبه التفكير فى ربه ، فلا يفسده سماع آلات الموسيقى .

وكذلك الخال فى الرقص . حين يضطرب القلب ، ويزداد السكر ، ويبدو اضطراب الجذب ، ويذهب المعتاد من الشكل ، فليس ذلك رقصا ، ولا هو تطلُّقا جسديا ، ولكنه خلوص الروح .

والهجویری - على أى حال - يضع عدة تحذيرات للذين يحضرون مجالس السماع . وهو يعترف ان الاجتماعات العامة التى يعقدها الدراويش ، ليست إلا فسادا خالصا . ويرى ألا يسمح للمبتدئين بشهوها . وقد وصف

(١) الرسالة القشيرية ص ١٥٣ س ٢٨ ، ٢٩

شهود رؤية ، فى العصور الحديثة ، كثيرا من هذه المشاهد المعرّبة .
وأنا أنقل إليك ، عن الجامى ، قصة مشهد مماثل ، وقع منذ سبعمائة عام .

كان أسود درويش ، يدعى « زَنْجِي بِاشِجَرِ دِي » قد تروحن ، حتى لا يكون مجلس سماع إلا إذا اشترك فيه . وفى أثناء السماع ، ذات يوم ، انجذب ، فارتفع فى الجو ، وجلس على عقد يشرف منه على أهل المجلس ، فلما أراد النزول ، قفز على الشيخ مجد الدين البغدادي ، وأحاط عنقه برجليه والشيخ مع ذلك لا يفتأ يدور فى تواجده ؛ على أن الشيخ نضو مهزول ، والأسود طويل بدين ، حتى إذا انتهى المجلس . قال مجد الدين « لا أدري أهو الأسود ، أم عصفور حط على عنقى ! » ولما نزل الأسود عن كتفى الشيخ ، عضه فى وجنته عضّة شديدة ، تركت كدما يرى بعد ذلك دائما وكثيرا ما قال مجد الدين : إنه لن يفخر بشئ يوم القيامة ، فخره بأنه يحمل آثار أسنان الأسود فى وجهه .

ولابد أن تظهر الملامح كاشرة جامدة . ناهيك بالتشويهات البالغة ، فى أى تخطيط صادق للحياة الجذبية فى الإسلام .
وليس هناك كسب من وراء إخفاء وجودها . أو التقليل من أهميتها ، وإذا قال جلال الدين الرومى :

يجر الناس على أنفسهم اللوم بسبب الخمر والمغيبات .
لأنهم يريدون أن يهربوا إلى حين ، من إدراكهم .
وما داموا يعلمون أن هذه الحياة شَرَك .
فإن الذاكرة المختارة ، والفكر جحيم .

* * *

فلنعلم أن وسائل السكر الروحى ، لم تكن دائما نقية ؛ وأن الطبيعة البشرية تحتال فى الاقتصاص لنفسها من الذين نبذوها .

* * *

الفصل الثالث

المعرفة

يميز الصوفية بين أعضاء ثلاثة ، تتخذ وسيلة للاتصال الروحي وهى :
أ - القلب « The Heart » الذى يعرفه .

ب - الروح « The Spirit » التى تحبه وتعشقه .

ج - السر « The Inmost ground of the soul » الذى يتأمله ^(١) .

وسنضرب فى أعماق اللجة ، إن نحن عرضنا لمناقشة هذه المصطلحات ، وصلة كل منها بغيره ، وحسبنا كلمات قلائل ، عن أول هذه الثلاثة .

القلب ؛ وإن اتصل على نحو غامض بسميه الجسدى ، ليس شيئاً من لحم ودم . وطبيعته عقلية ، أكثر منها عاطفية ، على نقيض مدلول كلمة « Heart » فى الإنجليزية . فإذا كان العقل غير قادر على معرفة ربه ، معرفة حقيقية ، فإن القلب قادر على أن يعرف وجوه الأشياء جميعاً ، وحين يشرق بنور الإيمان والمعرفة ، ينعكس عليه ما يحويه العقل الإلهى . ومن هنا كان قول الله فى الحديث القدسى « ما وسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن » ^(٢) .

وهذا الإلهام على كل حال ، رياضة نادرة الوقوع نوعاً ما .
والقلب - عادة - محجوب ، مظلم بالمعاصى ، ملوث بالتأثيرات

(١) يقول القشيري : « ومن ذلك السر ، ويحتمل أنها لطيفة مودعة فى القلب ، كالأرواح . وأصولهم تقتضى أنها محل المشاهدة ، كما أن الأرواح محل المحبة ، والقلوب محل المعارف » .

الرسالة القشيرية : ص ٥٩ س ٥ - ٨

(٢) ذخائر الأعلاق : ص ١١

والصور الجسدية . مذبذب بين العقل والعاطفة . فهذا ميدان تصطرع فيه جيوش الله وجيوش الشيطان ، بغية الغلبة . من أحد البابين يتلقى القلب معرفة الله اللدنية ، ومن الآخر تدخل عليه ضلالات الحس .

يقول جلال الدين الرومي :

هنا عالم ، وهناك عالم ، وأنا على العتبة جالس .
وفى طوق الإنسان - إذا شاء - أن يكون أخط من البهائم ، وأن يكون أرفع من الملائكة .

تكون خميرة الرجل العجيبة ، من الملك والحيوان .
فإن جنح إلى الحيوان كان أخط منه .
وإن مال إلى طبيعة الملك ، برز فيها عليه .
هو أقل من البهائم ، لأن البهائم تنقصها المعرفة ، التي تمكنها من النهوض .
وهو أرفع من الملائكة ، لأن الملائكة ليسوا عرضة للهوى ، فهم لا يزلون .

* * *

كيف يعرف الإنسان الله ؟ .
لا يعرفه بالحواس ، لأنه غير متحيّز : ولا بالعقل ، لأنه لا يرتقى إليه الفكر : فالمنطق لا يجاوز المحدود ، والفلسفة خادعة ، ودراسة الكتب تغذى خداع النفس ، وتضل « فكرة الحق » في سحب من الكلمات الجوفاء .

وجلال الدين الرومي يتساءل - مخاطباً علماء الكلام - في تهكم مرير .

هل عرفتم اسماً بلا مُسمّى ؟!

هل قطفتهم ورداً من الواو ، والراء ، والذال ؟ !
أنتم تسمون اسمه ! اذهبوا فابحثوا عن حقيقة المسمى !
لاتنظروا إلى القمر في الماء ، بل إلى القمر في السماء .
إن أردتم أن تترفعوا عن الأسماء والحروف .
فترفعوا أنتم عن « الأئية » أبدا .

تطهروا من جميع صفات النفس
حتى تروا وجودكم النوراني .
نعم : ترون في قلوبكم علم النبي .
دون كتاب ، ودون معلم أو مرشد .

* * *

وتأتى هذه المعرفة بالإشراق ، والانكشاف والإلهام ، يقول الصوفي
« انظر في قلبك ، لأن ملكوت السموات والأرض فيك » (١) .
فمن عرف نفسه حق المعرفة ، عرف ربه ؛ لأن القلب مرآة تنعكس
عليها كل صفة ربانية ، وكما تفقد المرأة قدرتها على عكس المرئيات حين
يتغشاها الصدا ، فكذلك الحاسة الروحية الباطنة ، التي يدعوها الصوفية
« عين البصيرة » ، تعشى عن رؤية العظمة العلية ، حتى يزول حجاز الذاتية
المظلم ، بكل مافيه من نقائص حسية ، زوالا تاما .

والصفاء - إن أريد له أن يتم على أكمل وجه - فلا بد أن يكون بفضل
الله ، على أنه يتطلب من جانب العبد جهادا باطنا . وتعاوننا خاصا ﴿ وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [سورة العنكبوت : الآية ٦٩] . والعمل باطل
زائف ، إن ظنه المرء ابتداء عن عند نفسه - والصوفي الحصيف يؤمن بأن
الله هو الفاعل الحقيقي لكل فعل ، فلا يجعل ثقته بما قدم من صالحات ، بل
ولا يريد أن يجازى عليها .

وينما يطلق على المعرفة العادية لفظ « العلم » يطلق على المعرفة
الخاصة بالصوفية لفظ « المعرفة ، أو العرفان » . و « المعرفة » - كما أشرت
فيما سبق - مختلفة أصالة عن « العلم » : ولابد من استعمال كلمة مغايرة
لترجمتها . ولن يذهب بنا البحث بعيدا ، وراء وجود كلمة مناسبة لها .
فمعرفة الصوفية هي « عرفان Gnosis الثيوصوفية الهلينستية ، هي معرفة مباشرة

(١) ينسبون إلى علي بن أبي طالب هذا الشعر .

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

لله ^(١) قائمة على انكشاف أو رؤية جذبية ، وليست نتيجة بحث عقلى . بل هى متوقفة أصالة ، على رضوان الله ومشيتته ، يسبغها منحة من عنده على هؤلاء الذين خلقهم وأعدهم لتلقيها ، إنها نور الجمال الربانى . يشع فى القلب . ويغلب كل قدرة إنسانية على أمرها . بضوئه الأخاذ ، « من عرف الله انقطع » ^(٢) .

وقد عالج النفرى - فى بحث فريد له عن التصوف النظرى - الصلة بين الدين والمعرفة . والنفرى درويش متجول مغمور ، مات فى مصر فى مستهل النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى ، (النصف الأخير من القرن العاشر الميلادى) وبحثه قائم على سلسلة من الانكشافات ، خاطبه الله فيها ، وعلمه ماينبغى أن يعلم عن « المعرفة » . وقد كتبت فى لغة تعسر على الفهم ؛ وليس من السهل فهمها من غير أن يصحبها شرحها . وإن قيمتها ، من حيث هى عرض أصيل للصوفية الراقية ، لتبدو من هذه المتقطعات التى أقدمها فى هذا الفصل . يقول النفرى :

« وقال لى : العلماء ثلاثة ، فعالم هداه فى قلبه ، وعالم هداه فى سمعه ، وعالم هداه فى تعلمه » ^(٣) .

(١) يقول القشيرى : « .. وعند هؤلاء القوم - يعنى الصوفية - المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى فى معاملاته ، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته . ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه ، فحظى من الله تعالى بجميل إقباله ، وصدق الله تعالى فى جميع أحواله . وانقطع عنه هواجس نفسه . ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعو إلى غيره . فإذا صار من الخلق أجنبيا ، ومن آفات نفسه برياً ، ومن المساكنات والملاحظات نقياً . وأدام - فى السر - مع الله تعالى مناجاته ، وحق فى كل لحظة إليه رجوعه . وصار محدثاً من قبل الحق - سبحانه - بتعريف أسرارهِ فيما يجريهِ من تصاريِف أقداره . يسمى عند ذلك عارفاً ، وتسمى حالته معرفة . وفى الجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه عز وجل » .

الرسالة القشيرية ص ١٨٣ س ٢٦ - ٣١ ، ص ١٨٤ س ١ - ٥

(٢) قال الواسطى : « من عرف الله تعالى انقطع ، بل خرس وانقطع » .

الرسالة القشيرية : ص ١٨٤ س ٢٦ ، ٢٧

(٣) المواقف ص ٣٤ س ٩ ، ١٠

يعنى بذلك ، أن من يطلبون الله على أنواع ثلاثة :
فأما أولاً : فالعباد الذين عرفهم الله نفسه ، بأسباب فضله . أى أنهم
يعبدون الله ، راجين الظفر بجنته ، أو بثواب روحى كالرؤيا الصالحة
والكرامات .

وأما ثانياً : فالفلاسفة وعلماء الكلام ، الذين عرفهم الله نفسه بأسباب
عظمته : أى أنهم لا يستطيعون أن يدركوا الرب العظيم ، الذى عنه يبحثون .
ويؤكدون أن معرفة ذاته فوق طاقة الإدراك ، حين يقولون : « مبلغ علمنا عنه
أننا لا نعلمه » .

وأما ثالثاً : فالعارفون ، الذين عرفهم الله نفسه بأسباب الجذب ، أى أن
السكر قد ملكهم ، وأمسك بزمامهم ، حتى خلصهم من إدراك الوجود
الذاتى .

والنفرى يأمر العارف ، أن يأتى من أعمال العبادة ، ما يكون على وفاق مع
« المشاهدة » - رؤية الله - وإن خالف بفعله هذا الشريعة ، فالشريعة لم
تجعل إلا للمحجوبين . ويجب أن تحدد له فراسته الباطنة أى مظاهر الدين
أبقى به . وذلك حين يقول :

« وقال لى : سلنى ؛ وقل : يارب ! كيف أتمسك بك ؟ حتى إذا جاء
يومى لم تعذبى بعذابك ؛ ولم تصرف عنى اقبالك بوجهك ! . فأقول لك :
تمسك بالسنة فى علمك وعملك ؛ وتمسك بتعرفى إليك فى وجد قلبك .
واعلم أنى إذا تعرفت إليك ، لم أقبل من السنة إلا ما جاء به تعرفى ، لأنك من
أهل مخاطبتى تسمع منى ، وتعلم أنك تسمع منى ، وترى الأشياء كلها
منى » ^(١) .

ويرى الشارح أن السنة ، لما كانت عامة فى شمولها ، لم تفرق بين
الأفراد ، من الذين يطلبون الجنة ، والذين يطلبون الله . بيد أنها فى الحقيقة
تتضمن على كل ما يتطلبه الشخص . ويدرك الأنسب منا لكل حالة ،
بأسباب المعرفة ، التى يرسلها الله إلى القلب ؛ أو بأسباب الهداية ، يقدمها
شيخ فى الله .

(١) المواقف : ص ٢٢ س ١٧ ، ١٨ ، ص ٢٣ س ١ - ٣

ويقول النفرى :

« وقال لى : تعرّفنى الذى أبديته ، لا يحمل تعرّفنى الذى لم أبده » (١) .
ومعنى هذا : أن العارف لاضير عليه ، إن اختلف إلهامه مع ظاهر
الشريعة . فهذا الاختلاف ظاهرى فحسب . ذلك أن الدين يخاطب عامة
الناس من المحجوبين ، عن طريق عقولهم ، أو عن طريق المنطق ، أو عن
طريق الحديث ، أو أمثال ذلك .

أما المعرفة ، فإنها للمختارين ، الذين غسلت أرواحهم وأجسادهم ، فى
النور الخالد .

فالدين يرى الأشياء من خلال التعدد ، أما المعرفة فتعتبر الجميع فى
التوحد . ومن هنا كان العمل الواحد خيرا عند الدين ، شرا عند المعرفة .
وتلك حقيقة قررت فى اختصار فى الأثر « حسنات الأبرار سيئات
المقربين » .

وأعمال البر - وإن لم تختلف مع المعرفة - ليس أحد ممن يرى لنفسه
فيها أقل فضل ، عارفا .

وهذه هى الفكرة ، التى يقوم عليها « الرمز » الآتى . والنفرى قلما يسوق
القول واضحا ، كما ساقه هنا ، فى هذا الرمز . ومع ذلك الوضوح ، فأنا
أتخيل أن قلة من القراء ، هم الذين يرون أن الشروح الموضوعة بين قوسين
زائدة عن الحاجة أصالة . وهذا هو الرمز .

(١) المصدر نفسه ص ٢ س ٥

موقف البحر (١)

« أوقفنى فى البحر ؛ فرأيت المراكب تغرق ، والألواح تسلم . ثم غرقت الألواح » .

[يريد بالبحر الرياضات والمجاهدات الروحية ، يجتازها السالك فى رحلته إلى الله . وما يشير إليه هنا هو : أى الأمرين يفضل ؟ آالشرع ، أم الحب المنزه عن الأغراض ؟ .

وهو يحذره أن يعتمد على ما قدم من صالحات ، فهى لا تفضل السفن الغريقة ، التى لن تصل به إلى شاطئ الأمان . لا ، بل عليه - إن طلب الله - أن يتوكل عليه وحده ؛ فإن لم يتوكل عليه توكلًا خالصًا ، وترك نفسه تثق - ولو قليلًا - فى الأغيار ، فهو ما يزال متعلقًا بلوح . وثقته بالله ، وإن كانت أعظم من السابقة ، إلا أنها ليست كاملة] .

« وقال لى : لا يسلم من يركب » .

[راكب البحر يتخذ السفينة آلة لعبور البحر ، فهو من هنا يعتمد على الأسباب الثانوية ، ولا يعتمد على السبب الأول] ^(٢) .

« وقال لى : خاطر من ألقى نفسه ولم يركب » .

[أن ترفض العلل الثانوية ، شأنه شأن أن تقذف بنفسك فى العباب . والصوفى الذى يركب هذا المركب فى خطر ، لسبيين : فلعله أن يرى لنفسه فضلًا فى هذا الرفض ؛ ومن يرفض شيئًا لهوى نفسه ، فهو فى حال شر من حال

(١) المواقف : ص ٧

(٢) يريد أن ما يراه بعض الناس وسيلة للنجاة ليس وسيلة لها ، وأنه لا يغنى بنفسه شيئًا ، فالسفينة لا تستطيع أن تجرى على اليبس .

من لم يرفضه . أو لعله أن يرفض الأسباب الثانوية - الصالحات من الأعمال والأمل في الجنة ، وما جرى مجراها - لا لوجه الله ، بل لمحض عدم الإكتراث ، أو لغلاظ كبده على الدين] .

« وقال لى هلك من ركب وما خاطر » .
[وعليه - رغم المخاطر المشار إليها - أن يجعل الله الغاية ، لا غاية بعده ، وإلا خاب] .

« وقال لى : فى المخاطرة جزء من النجاة » .
[وذلك بعض النجاة لاغير ، لأن كمال انكار الذات لم يتحقق بعد - وجماع انكار الذات فى انمحاء الأسباب الثانوية - جميع الظواهر - فى السكر الناتج عن رؤية الله . بيد أن هذه هى المعرفة ، أما ذلك الانكشاف والتعرف ، فهو موجه إلى صوفية فى درجة أقل من درجة العارفين . والعارف لا يخشى خطراً ، لأنه لا يملك شيئاً يخشى عليه الضياع] .

« وقال لى : وجاء الموج ، فرفع ماتحته ، وساح على الساحل » .
[من تحت الموج هم الذين أبحروا فى سفن ، ثم تحطمت بهم سفنهم . فاعتمادهم على الأسباب الثانوية ، ألقاهم على الساحل ، أى أعادهم ثانية إلى عالم الظواهر] .

« وقال لى : ظاهر البحر ضوء لا يبلغ » .
[من يجعل شعائر العبادة الظاهرة عُمدته فى الوصول إلى الله فإنما يعتمد على الهباء] .

« ومقره ظلمة لا تُمكن » .

[نبذ الدين ، أصلاً وفرعاً ، ضرب فى متاهة] .

« وبينهما حيتان لا تستأمن » .

[يشير إلى الطريق الوسط ، بين مذهب أهل الظاهر ، ومذهب أهل الباطن . « والحيتان » مخاطرها وعقابها] .

« وقال لى : لا تركب البحر فأحجبك بالآلة » .
[المراد بالآلة هنا « المركب » . يعنى الاعتماد على غير الله] .

« ولا تلق نفسك فيه ، فأحجبك به » .
[من يعتبر العمل يأتيه ، عمله هو دون غيره ، وينسبه إلى نفسه فهو بعيد من ربه] .

« وقال لى : فى البحر حدود ؛ فأيتها يُقَلُّك ؟ » .
[الحدود هى الدرجات المختلفة للرياضة والمجاهدة الروحية . وعلى الصوفى ألا يعتمد على أى منها فكلها باطلة] .

« وقال لى : إذا وهبت نفسك للبحر ، فغرقت فيه ، كنت كدابة من دوابه » .
[إذا اعتمد الصوفى ، على الأسباب الثانوية ، من عند نفسه ؛ أو تركها من عند نفسه ، فهو لابد ذاهب مذهب الضلال] .

« وقال لى : غششتك إن دلتك على سوى » .
[إذا أمر الصوفى صوته الباطن أن يجعل وجهته شيئاً غير الله فهو يخدعه] .

« وقال لى : الدنيا لمن صرفته عنها والآخرة لمن أقبلت بها إليه ، وأقبلت به على » .
[يريد أن النعيم الدائم ، نصيب من صُرِفَتْ قلوبهم عن هذه الدنيا .

وليس لهم من نصيب فى متاعها . وأصحاب الآخرة حقاً ، هم الذين لا يطلبونها ؛ من حيث إنها ليست المقصد الحقيقى لغرضهم ، بل المقصد التأمل فى الله لاغير] .

والعارف يعاين عنصر الحقيقة فى الدين ، بيد أن معرفته ليست مستمدة من الدين ، أو من أى نوع آخر من أنواع المعرفة البشرية ، وإنما هى قاصرة أصالة على الصفات الربانية ، والله يكشف معرفتها لأوليائه المتفكرين فيه . وذو النون - الذى تجعل منه نظرياته الصوفية أبا للثيوصوفية الإسلامية - يرى « أن العارفين ليسوا أنفسهم ، ولا يوجدون فى أنفسهم . وهم - ما كان لهم وجود - موجودون فى الله ؛ يتحركون إذا أراد أن يتحركوا . وكلماتهم كلمات الله ، تجرى على ألسنتهم وبصرهم بصر الله ، حل فى أعينهم . والعارف يتأمل الصفات لا الذات ، إذ يظل - حتى فى المعرفة - أثر ضئيل من الإثنية ؛ ولا تختفى هذه إلا فى « فناء الفناء » ذلك التلاشى المطلق فى الربوبية الصمدية . والصفة الأساسية هى الوجدانية . والوجدانية الإلهية قاعدة المعرفة الأولى والأخيرة » .

والمسلم والصوفى ، كلاهما يعلن أن الله واحد ؛ ولكن الجملة تحمل معنى مختلفاً عند كل منهما . فالمسلم يرى أن الله فرد فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأنه لا يماثل أحداً من الموجودات إطلاقاً . والصوفى يرى أن الله هو الموجود ، الحق الأحد ، الذى يكمن وراء الظواهر جميعاً . وقد بلغ الصوفية بهذا رأى غايته القصوى ، كما سرى . فإن لم يكن موجوداً إلا الله ، فالعالم جميعاً - وفيه الإنسان - واحد مع الله ضرورة ؛ حيث يعتبر فيضاً صدر عنه ، دون الإخلال بوجدانيته ؛ كأشعة الشمس مع الشمس ؛ أو حيث يعتبر مرآة تنعكس عليها الصفات الربانية . والإله ، الذى بيده الأمر ، لا يكشف نفسه على هذا النحو ، دون سبب . فلم انقلب الواحد كثرة ؟! يجيب الصوفية - ولعل فيلسوفاً أن يقول : إنهم يتجنبون المشكلة - باقتباس الحديث المشهور : « كُنْتُ كَنْزًا مَخْفِيًّا ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُعْرَفَ ، فَخَلَقْتُ الْخَلْقَ ليعرفونى » . وفى عبارة أخرى ؛ الله هو الجمال السرمدى ، وفى طبيعة الجمال تكمن الرغبة فى الحب .

والشعراء الصوفية ، قد وصفوا ظهور الذات الأحدية بمزيج من الخيال
الأنيق . يقول الجامى :

من الأبدية ، كشف المحبوب حجاب جماله ، فى فردانية الغيب ،
ثم رفع المرآة إلى وجهه هو ، وكشف عن جماله لنفسه .
الكل واحد ، فلا اثنية ، ولا أثر للأنت والأنا .

* * *

دائرة السماء المترامية ، تعج بالألوف من الداخلين والخارجين ، اختبأت
فى نقطة واحدة .

والخليقة ترقد ممتدة ، فى غفوة العدم ، كالوليد قبل أن يتنفس .
وعين الحبيب - ناظرة مالم يكن - ترى المعدوم موجودا .
وهو ، وإن كان يرى صفاته وأحواله وحدة حقة مع ذاته ، يريد أن تبدو
له فى مرآة أخرى .

وأن تصير كل صفة من صفاته الباقية ، بادية كذلك على وضع آخر .

* * *

من أجل ذلك خلق هذه المروج الخضر ، من المكان والزمان ، وبستان
أسباب العيش من الدنيا .

حتى يستطيع كل غصن ، وكل ورقة ، وكل ثمرة ، أن يعرض نواحي
جلاله المختلفة .

فالبان يعطى لمحة عن قوامه اللدن ، والورد يروى عن طلعه البهية .

* * *

وحيث يرى الجمال فالحب بجانبه يُرى .
فإذا توهج الجمال فى الخدود الوردية . أوقد الحب مشعله من هذه
الجدوة .

وحيث أقام الجمال فى الغدائر السود ، أتى الحب فوجد قلبا محتبلا فى
طياتها .

* * *

الجمال والحب ، كالروح والجسد . الجمال كالمنجم والحب كالحجر الكريم . لقد كانا معا منذ الأزل ، ولم يرحلا قط إلا مصطحبين .

* * *

ويعرض الجامي ، في مؤلف آخر ، الصلة بين الله والعالم ، على نحو أكثر تفلسفا حين يقول :

« الذات الصمدية ، إذا نظر إليها على أنها المطلق ، المجرد عن جميع المظاهر والحدود والتكثر ، هي الحق . وعلى النقيض من ذلك ، إذا نظر إليها من وجهة تكثرها وتعددتها ، ذلك التعدد والتكثر الذي تبدى فيه نفسها ، حين تتلبس بالمظاهر ، فهي العالم المخلوق أجمع . وإذا فالعالم هو التعبير المعائن الظاهر عن الحق . والحق هو حقيقة العالم المغيبة الباطنة . ومن قبل أن يكون العالم مشهودا ، كان متحدا مع الحق . والحق ، بعد أن صار العالم مشهودا ، أضحي متحدا به . »

ومثل هذه الظواهر إنما هي من غير الموجود وجودا حقيقيا ، وإنما تستمد وجودا عارضا من صفات « الموجود المطلق » التي بها تتجلى . والعالم المحسوس كالدائرة النارية الموهومة ، صنعت من شرارة واحدة تدار في سرعة .

والإنسان تاج الخليقة وآخر أسبابها . وهو إن يكن آخرها في ترتيب الخليقة ، فهو أول في مجرى الفكر الرباني . لأن الجانب الأساسي فيه هو الفطرة . أو « العقل المحيط » الذي فاض عن الألوهية مباشرة .

وترتبط هذه الفكرة بفكرة « الكلمة = Logos » . والكلمة هي الأصل الإلهي للأشياء جميعا . وتشخص في النبي محمد . وفي الطرق عقد مماثلة لطيفة بين المذهبيين : الصوفي . والمسيحي . فالتعابير التي تُنسب إلى مؤسس الإسلام . هي بعينها التي تُنسب للمسيح القديس يوحنا ، والقديس بولس ، وعلماء اللاهوت المتأخرون من متصوفة المسيحيين .

ومن هنا دعى محمد « نور الله » ؛ وقيل عنه إنه وجد قبل خلق الكون . ومن مناقبه أنه أصل الحياة جميعها . ما كان منها وما يكون . وهو الإنسان الكامل الذي تجلت فيه جميع الصفات الربانية . وتُنسب إليه الرواية الصوفية هذا الأثر (من رآني فقد رأى الله) .

ومذهب « الكلمة » يحتل في الفكر الإسلامى منزلة ثانوية ، وذلك مالا بد منه ، إذا انحصر واجب الإنسان في تحقيق توحيد الله . وأوضح ميزات التصوف الشرقى - من حيث أنه معارض للتصوف الأوربى - هو إدراكه العميق للوحدة الشاملة . النافذة في كل شئ . التى يذوب فيها كل مميز من مميزات الشخصية .

وليس مقصود الصوفى أن يتشبه بالله . ولا أن يشارك بشخصه في الطبيعة الإلهية ؛ بل أن يهرب من حجاز ذاتيته الباطلة . حتى يتأتى له الاتحاد ثانية بالواحد الموجود المطلق .

والاتحاد - على مايقول الجامى - يتهيأ بجعل القلب واحدا . وذلك بتطهيره وحبسه عن الاتصال بشئ خلا الله ؛ سواء في الرغبة أو في الإرادة ؛ وسواء في العلم أو في المعرفة . ورغبة الصوفى أو إرادته ، لا بد أن تصرف صرفا عن الأشياء جميعا ؛ المرغوب فيها والمراد . ولا بد كذلك أن تُطرد من خياله الواعى كل موضوعات العلم والعرفان . ولا بد أن توجّه أفكاره جميعا إلى الله لاغير . وألا يذكر معه غيره .

وما دام أسيرًا في أحبولة الشهوة والهوى ، فمن العسير عليه أن يرعى هذه الصلة مع الله . فإذا استعلن فيه التأثير القاطع لذلك الجذب ، فطردت سوابق الانشغال بالمحسوسات وإدراكها ، من وجوده الباطن ؛ هيمن السرور بالوصال الربانى ، على الملذات الجسدية ، والأفراح الروحية . وانتهت مجاهدة النفس ، ذلك العمل المضنى ؛ وملأت حلاوة التأمل روحه نشوة . وإذا أدرك المريد المخلص في نفسه بداية هذا الانجذاب ، وهو السرور في ذكر الله ، فليحبس عقله وقلبه على تغذيته وتقويته ، وليجعل نفسه بمنأى عما لا يتفق مع هذا الانجذاب ، وليعتقد أنه إن طلب الخلود برعاية هذه الصلة ، فلن يكون قد أدى واجبه على الوجه المطلوب :

ضرب الحب وتر الحب في قيثارة روحى .
فصيرنى حبا من قمتى إلى أخمص قدمى .

لم يكن إلا لمس لحظة ، حتى صار .
وقت العبادة المفروضة إثما .

والحقيقة المسلمة عند الصوفية ، أن « ما ليس في الإنسان لا سبيل له إلى معرفته » . والعارف - الرجل المختار - لا يستطيع أن يعرف الله ، ولا أن يعرف شيئا من أسرار الكون ، ما لم يجدها جميعا في نفسه . فهو « العالم الأصغر » وهو « مثال صورة الله » وهو « باصرة الدنيا ، يرى فيها الله آثاره هو » وفي معرفته لنفسه - كما هو على حقيقته - معرفة الله . وهو يعرف نفسه بمعرفة الله ، فالله أقرب إلى كل شيء من معرفة الشيء لنفسه .

فالصوفية إذا اتحد . هي تحقيق للقول بأن ظهور « الغيرية » إلى جانب « الأحدية » حُلْم خادع كذاب . والمعرفة تُرْقِد هذا الشَّبَح الذي يكثر التردد على غير المجتبيين ، طوال حياتهم ؛ وينتصب كحائط من ظلام دامس ، بينهم وبين الله . والمعرفة تعلن أن (الأنا) ليست إلا رسما في الكلام ، وأن الشخص لا يستطيع حقيقة أن يعزو إلى نفسه أى إرادة ، أو إحساس ، أو فكر ، أو عمل .

وقد سمع النفرى الهاتف الربانى يقول له :

« متى رأيت نفسك ثابتا ، ولم ترنى فى الرؤية مُثَبِّتًا ، حجبت وجهى ، وأسفر لك وجهك ، فانظر إلى ما بدا لك ، وما توارى عنك » ^(١) .

[إذا اعتبر الإنسان نفسه موجودا فى الله ؛ وذلك بأن يكون عنصر الربانية فيه مهيمنا على عنصر الجسدانية ، مفنيا له ؛ فلا يرى شيئا غير الله . أما إذا اعتبر لنفسه وجودا مستقلا ، بدت له أنانيته الباطلة ، واستترت منه حقيقة الله] .

« وقال لى : لاتنظر إلى الأبداء ، ولا إلى البادى ؛ فتضحك وتبكي . وإذا ضحكت وبكيت ، فأنت منك لامننى » ^(٢) .

(١) المواقف : ص ٥ س ١ ، ٢

(٢) المصدر نفسه : ص ٥ س ٣ ، ٤

[من يُقِم للكشف الرباني اعتبار فهو آثم بالشرك ، من حيث إن الكشف يستلزم كاشفاً ، ومكشوفاً . ومن يُقِم للمكشوف - وهو جزء من الكون - وزناً ، يُقِم وزناً لشيء غير الله . والضحك دليل فرح بما كسبت ، والبكاء دليل حزن على ما فقدت . وكلاهما عمل (الأنا) . والعارف لا يضحك ولا يبكي] .

« وقال لي : إن لم تجعل كل ما أبديت وأبديه وراء ظهرك لم تفلح ، فإن لم تفلح لم تجتمع على » ^(١) .
[الفلاح هو الاعتقاد الحق في الله ، وهو يستلزم انصرافاً كاملاً عن الخلق]

وهذه المذاهب - منطقياً - تلغى كل قانون ديني أو أخلاقي . وليس عند خيال العارف مثوبات أو عقوبات ربانية ، ولا مقاييس للحسن أو القبيح ، وعنده أن كلمة الله المكتوبة ، قد نسخها كشفه اللطيف المباشر . يقول أبو الحسن الخرقاني ^(٢) : « لا أقول إن الجنة والنار غير موجودتين . ولكني أقول : ليستا عندي شيئاً ، لأن الله خلقهما جميعاً ، وليس لمخلوق مكان حيث أكون » .

ومن هنا كانت جميع أشكال الأديان متساوية ، وليس الإسلام بأفضل من الوثنية . وليس شيئاً عقيدة يعتقدها الإنسان ، أو شعيرة يؤديها !

(١) المواقف : ص ٥ س ٥ ، ٦

(٢) أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني ، نسبة إلى خرقان - بفتح الحاء والراء والقاف - قرية في جبال بسطام كبيرة ، كثيرة الخير ، على طريق استراباد ، له الكرامات الظاهرة ، والأحوال السنية ، راض نفسه وأجهدا . مات يوم عاشوراء سنة خمس وعشرين وأربعمائة (ديسمبر ١٠٣٣) وكان له يوم وفاته ثلاث وسبعون سنة .

المسجد الحق يقوم في قلب طاهر مقدس .

فدع الناس يعبدون الله فيه .

حيث يقيم ؛ لا في مسجد من حجارة .

وبين خليط العقائد والمعتقدين ، لا يرى العارف إلا معبودًا واحدًا حقيقًا بالعبادة . ويرى ابن عربي ^(١) أن هؤلاء الذين يعبدون الله في الشمس يرون الشمس ، والذين يعبدونه في الأحياء ، يرون أحياء ، والذين يعبدونه في الجماد يرون جمادا ، والذين يعبدونه وجودًا صمدانيًا ليس كمثله شيء ، يرون مالا مثيل له . فلا تصل نفسك بعقيدة بعينها كل الوصل ، فتكفر في البقية . فإن وصلت نفسك فقدت خيرا كثيرا . لا ! بل لم تستطع أن تعرف الحق الصراح في الأمر . والله - وهو موجود في كل زمان ومكان ، قادر على كل شيء - لاتحده عقيدة واحدة . وهو يقول : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: الآية ١١٥] . وكل إنسان يمجد ما يعتقد ، فالله مخلوقه ، وفي تمجيده تمجيد لنفسه . وهو لذلك يعيب عقائد غيره ، التي لو أنصف ماعابها . فإن عيبه لها قائم على جهل ، ولو أدرك قول الجنيد : « لون الماء لون إنائه » لم يدخل نفسه في عقائد الناس ، ولأدرك الله في كل معتقد . يقول حافظ ^(٢) ، وكأنه مفكر حر أكثر منه صوفيا :

(١) محي الدين بن العربي ، الصوفي الكبير ، وصاحب المؤلفات العديدة في التصوف . كان يكتب الإنشاء لبعض ملوك العرب ، ثم تزهّد وساح ، ودخل مصر والشام والحجاز والروم . وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يحط عليه كثيرا . توفي ابن عربي سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

لواقح الأنوار : ح ١ ص ٢١٩

(٢) حافظ الشيرازي : شاعر فارسي ، اسمه ولقبه شمس الدين محمد . ولد في شيراز قبل سنة عشرين وأربعمائة من الهجرة (١٣٢٠ م) . حفظ القرآن الكريم في حدثه . وانصرف إلى دراسة الفقه والعربية والأدب ، وكان شيعيًا معتدلا ، من الإثنى عشرية . ويبدو أنه كان يقول بقدّم القرآن .

وحافظ أرق شعراء الغزل وأعظمهم ، مترفع عن الابتذال ، وله إلى جانب أشعاره شروح على « الكشف » للزمخشري ، وعلى المصباح . توفي سنة إحدى وتسعين وسبعمائة (١٣٨٩ م) بشيراز .

دائرة المعارف الإسلامية : المجلد السابع : ص ٢٥٣ - ٢٥٧

الحب يكون حيث يسقط عن وجهك قناع العظمة .
وسياق فوق حوائط دير ، أو أرض حان
تتلعلع النار المقدسة .
أو حيث يسبح العابد المُعْتَمِّمُ ربه بالليل والنهار .
أو حيث صليب المسيح وأجراس الكنيسة ، تدعو للصلاة .

* * *

ولعل التصوف أن يعقد يده مع التفكير الحر - وكثيرا ماعقد - ولكنه لا يكاد يفعل ذلك مع الفرق . وذلك يبين لنا كيف كانت الأغلبية الساحقة من الصوفية ، معدودين - وإن في الظاهر - من أهل السنة في الجماعة الإسلامية .

يقول عبد الله الأنصارى : إنه كان من ألفى شيخ صوفى عرفهم ، شيعيان اثنان لا غير .

وقد قصّ رجل ، من نسل الخليفة على ، وكان شيعيًا غاليا ، القصة التالية : أرسلنى والدى إلى شيخ فى الله ، لزمته خمسة أعوام ، لم أنقطع عنه يوما واحدا ، فتعلمت منه درسًا مفيدا ، لن أنساه . أخبرنى أنى لن أعرف شيئا ألبته عن التصوف ، ما لم أدع أصالة الكبرياء ، الذى استشعره بنسبى . وقد وصف غير المتعمقين من الباحثين « البابية » بأنها ثمرة من ثمار التصوف .

ولكن « عقيدة الصوفية Dogmatism » تناقض طبعًا « اختيارية البابية Electicism » .

والصوفى ، كلما زاد معرفة بالله ، قلّت حماقاته الدينية . فالشيخ عبد الرحمن بن الصباغ ، الذى ضاق ذرعًا بالعيش فى صعيد مصر ، لكثرة من به من اليهود والنصارى . قال فى أخريات أيامه : إنه ليود معانقة اليهودى أو النصرانى ، كما يعانق أحد أبناء دينه .

وإذا كانت الأشكال ، التى يخطئها العد ، من العقائد والشعائر ، تعتبر ذات قيمة خاصة تتناسب مع الإحساس الباطن الذى ألهمها ؛ فهى تبدو . من وجه آخر حُجُبًا دون الحق . وحواجز يسعى القائلون بالاتحاد جاہدين فى إلغائها وتحطيمها .

هذه الدنيا ، وتلك الأخرى ، بيضة فيها الطائر .
 قابعا في الظلمة ، محطوم الجناح ، محقرا مطرودا .
 فاعتبر الكفر والإيمان كصغار البيضة وبياضها ،
 يقوم بينهما - واصلا فاصلا - حاجز لا يتخطيانه .
 فحين طوى ذو الجلال البيضة تحت جناحه كرمانة ،
 اختفى الكفر والإيمان ، فمد طائر الاتحاد جناحيه .

والصوفي الكبير ، أبو سعيد بن أبي الخير ، حين يتحدث بلسان
 القلندرية^(١) - متجولة الدراويش - يعبر عن قواعدهم ، في تحطيم هذه
 الأوثان ، في شجاعة تأخذ بالألباب ، حين يقول :
 لن نؤدى ما فرض علينا من واجب مقدس ،
 ما لم نذر كل مسجد تشرق عليه الشمس حطاما
 ولن يظهر المسلم حق المسلم ،
 ما لم يصير الإيمان والكفر واحدا .

ومثل هذا الإعلان الصراح ، بالحرب على الدين الإسلامى قليل . وبرغم
 اتساع الهوة وعمقها ، بين الصوفية الممتلئة بريح الاعتداد ، وبين الإسلام
 السنى ، فكثير من المتصوفة - إن لم تكن كثرتهم الغالبة - يؤدون جزية
 الخضوع للنبي ، ويرعون رسوم التقوى الظاهرة ، المفروضة على جميع

(١) طريقة القلندرية منسوبة إلى « قلندر يوسف » عربى أندلسى ، معاصر للحاج بكتاش
 (مؤسس البكتاشية) ، وقد ظهر مؤسسو هذه الطائفة ، أول مآظهم ، في دمشق سنة ٦١٠ هـ
 (١٢١٣ م) . وكانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم ، فمنعهم السلطان الملك الناصر حسن ،
 حفيد قلاوون سنة ٦١٠ هـ من ذلك ، على ما يقول المقرئ . وقد نقلها إلى مصر الشيخ
 جمال الدين الساوى ، المدفون في زاوية بدمياط . وكان زعيم مزيجا من النرى الفارسية
 والمزدكية ، وكانت أخلاقهم فى منتهى الانحلال ، بل إنهم كانوا لا يأخذون أنفسهم بشعائر
 الدين ، ومقومات الأخلاق .

المسلمين . بيد أنهم قد زودوا هذه الشعائر والرسوم ، بمعنى جديد ، صرفوها به عن حقيقتها ، ولكنهم لم يدعوها أصالة . وإليك الحج مثالا . فهو عند الصوفى الألمعى هراء وهواء ، إن لم تصاحب حركات القلب شعائره المتعاقبة ، التى يشتمل عليها .

« جاء رجل إلى الجنيد ، بعد أن فرغ من حجه . فقال له الجنيد : « أرحلت عن جميع ذنبك ، حين رحلت عن دارك ؟ » . فقال : « لا ! » . قال : « فأنت لم ترحل ! » . ثم قال : « وبعد كل مرحلة نزلت ، حيث تنبث الليل ، هل قطعت مرحلة إلى الله ؟ » . قال : « لا ! » قال الجنيد : « فأنت لم تقطع الطريق مرحلة مرحلة ! » . ثم قال : « وحين لبست ثوب الإحرام ، فى موضعه ، هل خلعت صفات البشرية عنك ، وأنت تخلع ثيابك ؟ » قال : « لا ! » . قال الجنيد : « فأنت لم تحرم ! » . ثم قال : « وحين وقفت بعرفة ، هل تأملت فى الله لحظة واحدة ؟ » . قال : « لا ! » . قال : « فأنت لم تقف بعرفة ! » . ثم قال : « وحين أفضت إلى المزدلفة ، وقضيت مناسكك ، هل رفضت جميع الأغراض الجسدية ؟ » قال : « لا ! » . قال : « فأنت لم تفض إلى المزدلفة ! » . ثم قال : « وحين طُفَّت بالبيت ، هل أدركت الجمال الإلهى فى بيت الطهر ؟ » . قال : « لا ! » قال : « فأنت لم تطف بالبيت ! » . ثم قال : « وحين سعت بين الصفا والمروة ، هل أدركت الصفاء والمروءة ؟ » . قال : « لا ! » . قال : « فأنت لم تسع ! » . ثم قال : « فلما جئت إلى منى . هل ذهبت عنك جميع المنى ؟ » . قال : « لا ! » قال : « فأنت لم تزر منى ! » . ثم قال له : « فلما وصلت إلى المنحر ، ونحرت قربان ، هل نحرت أسباب متاع الدنيا ؟ » . قال : « لا ! » . قال : « فأنت لم تنحر ! » . ثم قال له : « فلما رميت الجمار ، هل رميت ماصحبك من أفكار جسدانية ؟ » . قال : « لا ! » . قال الجنيد : « فأنت لم ترم الجمار ؛ بل ولم تؤد على ذلك حجا ! » .

وهذه الأقصوصة ، تقابل ظاهر الشريعة فى الدين ، بباطن الحقيقة فى التصوف . كما أنها تبين أنه ليس فى الإمكان فصل إحداهما عن الأخرى يقول الهجویری :

« الشريعة من غير الحقيقة نفاق ، والحقيقة من غير الشريعة إلحاد

وتداخلهما كتداخل الروح والجسد ؛ إذا فصلت الروح عن الجسد ، يضحى بعدها جثة هامدة ، وتلاشى الروح ، كما يتلاشى الريح . وإقرار المسلم بالإسلام يشملهما جميعا ، فقلوه : (لا إله إلا الله) هو الحقيقة ، وقلوه : (محمد رسول الله) هو الشريعة . فمن أنكر الحقيقة كفر ، ومن رفض الشريعة تزندق ^(١) .

وأواسط الطرق ، وإن تكن آمنة ، عند من يرسلون الحكم والأمثال ، عسيرة على من يمارس السير فيها ، وإنما أمكن التوفيق بين القرآن ، وبين المذهب للباطن ، الذى انتزعه الصوفية ، بعد ركوب سبيل التعسف . والمتصوفون قد أدوا - دون ريب - عملا جليلا للإسلام . فهم ، بنذهم قشور الدين ، وإصرارهم على تحصيل لبابه ، بتنمية المشاعر الروحية ، وتطهير البواطن ، لا بالعمل الظاهرى ، قد مكّنوا لملايين الناس من حياة غنية عميقة .

وهذا نمو مشروع جليل الفائدة لشريعة النبى . بيد أن النبى موحد ؛ والصوفية - مهما كان ظاهريهم ، أو تصورهم - ثيو صوفيون ، أو اتحاديون ، أو حلوليون . وإذا تكلموا ، أو كتبوا فى عقائد الدين ، اتخذوا لغة ليس فى الطوق التوفيق بينها وبين نظرية التوحيد ، التى سنأخذ فى درسها .

فغنيف الذين التمساني ، الذى قدمت بعض المقتطفات من شرحه على كتاب النفري ، يقول فى صراحة : « إن القرآن كله إشراك » . وتلك حقيقة صادقة غاية الصدق عند الاتحاديين ؛ وإن لم تجرؤ إلا قلة من الصوفية على أن تقول ذلك .

والاتحاديون من المتصوفة ، يعترفون بوجود التعارض ، ولكنهم لا يرونه تعارضا حقيقيا ، ولعلمهم أن يقولوا : « الشريعة والحقيقة شئ واحد ، وإنما

(١) يقول القشيري : « الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية . فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محمول . فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والخلق إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده » .

يتعدد باختلاف أوضاعه ، فالشريعة لكم ، والحقيقة لنا . وإذا خاطبناكم خاطبناكم حسب إدراككم . إذ ما هو لحم عند العارفين ، قد يكون سمًا زعافا عند غير السالكين . والأسرار الرفيعة لا بد أن يضمن بها على الآذان الترابية . وإنما هو العقل البشرى ، الذى يزدوج الواحد عنده ، ويرجح الشريعة على الحقيقة . فافنّ عن عالم المتناقضات ، وصِرْ واحدا مع الله ، الذى لا نقيض له .

والعارف يقرر أن الشريعة نافذة ، وأنها ضرورية فى المحيط الخلقى ، فما كان خير أو شر ، إلا والشريعة من فوقهما أمرة ناهية ، مشية معاقبة . وهو يعلم ، من ناحية أخرى ، أن ليس موجودا ، على الحقيقة ، غير الله ، ولا فاعلا سواه . ومن هنا كان الشر - إن يكن موجودًا على الحقيقة - لا بد ربّانيًا ، وكانت الآثام - إن تكن على الحقيقة آثام - لا بد من فعل الله .

ولكن النتيجة غير صادقة ، لان المقدمات غير صادقة . فليس للشر وجود على الحقيقة ، وإنما هو العدم ، الذى هو انعدام الموجود وتخلفه ، كالظلمة لا تكون إلا من تخلف النور . قال النورى : « رأيت النور مرة ، فتعلق به بصرى ، فصرت نورًا » . فليس عجيبا لهذه الأرواح المشرقة ، الراضية فى كبرياء المظاهر الكاذبة للدين والأخلاق ، فى عالم الأشباح ؛ أن تنادى مع جلال الدين :

رجل الله تصيره الحقيقة عالما .

رجل الله لا يتلقى العلم من كتاب .

رجل الله من وراء الإيمان والكفر .

وعند رجل الله يستوى الخطأ والصواب .

ويجب أن لا يغيب عن البال أن هذه نظرية التحقق ، وأن من نضعهم فوق الشريعة إنما هم الأولياء ، والمرشدون الروحيون ، والشيوصوفيون المتعمقون الذين حظوا بخاص عناية الله ، وليسوا فى حاجة إلى كبج جماع ، أو إمساك زمام ، أو إيقاع عقوبة .

وقد أدت هذه النظرية ، فى أحوال كثيرة ، إلى التفلت من الشريعة ،

والخروج عن جادة الاستقامة ، كما هو حال « البكتاشية » ^(١) وغيرهم من الجماعات ممن يدعون « الدراويش الآثمون » .

وهذه النظريات عينها ، قد أنتجت عين النتائج في أوروبا ، خلال العصور الوسطى . ولا يسع المؤرخ المنصف ، أن يغفل المفاصد ، التي تعرضت لها صوفية ذاتية خالصة . بيد أننا الآن ، نعرض للوردة ذاتها ، غير ناظرين إلى مافيه من أمراض .

وليس كل الصوفية عارفين . ومن لم يبلغوا بعد درجة المعرفة يتلقون - كما بينت آنفا - عن شيوخهم العارفين الإرشاد الملائم لحاجاتهم .

وجلال الدين الرومي ، في مجموعة من الشعر الغنائي ، تسمى (ديوانى شمسى تبريزى) ^(٢) ، قد أرخى العنان لحماس حلولى ، يرى الأشياء جميعا قد أسبغ عليها ثوب الحلول . وذلك حين يقول : خلعت الإثنية ، ورأيت العالمين واحدا .

(١) طريقة الدراويش البكتاشية منسوبة إلى الحاج بكتاش ، ولى من أولياء المسلمين ، حياته غامضة . يقال إنه ولد بنيسابور ، ودرس على أحمد يسوى كما يقال إنه مات سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) . وقد كان لهذه الطريقة صلة قوية بالإنكشارية ، حتى قيل إنهم اعتنقوا الإسلام على يد بكتاش ، فى عهد أورخان . ويتفق البكتاشية مع (القزلباش) فى شرقى آسيا الصغرى ، و (العلى إلهى) أى مؤلهى على من الشيعة ، فى أصول عقائدهم . ولآراء الصوفية عن المساواة فى الأصل بين جميع الأديان . وعدم فائدة الشعائر شأن كبير ، فى عقائد البكتاشية . وبقيت فى طريقة هؤلاء الدراويش عناصر نصرانية ، ولا أدريّة ، ووثنية . وهم ، رغم ادعائهم أنهم من أهل السنة ، من غلاة الشيعة يؤلهون عليا ، ويذمون الخلفاء الثلاثة ويعترفون بالأئمة الإثنى عشر ، وييجلون من بينهم خاصة الإمام جعفر الصادق . وتأثر البكتاشية تأثرا ظاهرا بالمسيحية . فعندهم ما يشبه العشاء الربانى ، إذ يوزعون النبيذ والخبز والجبن فى اجتماعاتهم ، ويقولون بالتثليث ، وقد أحلوا عليا محل عيسى (الله ، محمد ، على) . ويعترفون بخطاياهم إلى شيخهم ، ويتلقون منه المغفرة . والخمر غير محرمة عندهم ، ولها أثر واضح فى طريقتهم . كما يعتقدون كذلك فى تناسخ الأرواح ولهم تكايا فى نواحي العالم الإسلامى . منها تكيه بمصر فوق المقطم .

دائرة المعارف الإسلامية : ح ٤ ص ٣٧ - ٤٠

(٢) نشر الأصل الفارسى من (ديوانى شمسى تبريزى) مع ترجمة انجليزية له ، وقدم له وعلق عليه الأستاذ نيكلسون فى كمبردج سنة ١٨٩٨ م

عن واحد أبحث ، وواحد أعرف ، وواحد أرى ، وواحد أناذى .

لقد انتشيت بجام الحب ، فالعالمين قد فنيا من إدراكى .
ولست مشغولا بغير تساقى الشراب ومناقلته .

بيد أن جلال الدين فى « المشنوى » والمشنوى ذو شهرة وقداسة ، حتى
لقد دعوه « قرآن فارس » ، نجده يشرح المذاهب الصوفية فى أسلوب أكثر
رزانة من ذى قبل ، ويرى مَعْدلة سبل الله للإنسان . وهو وإن يكن متفائلا ،
عميقا فى تفاؤله ، متفقا مع الغزالي ، فى أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ،
لا يتخلص فى يسر ، كما يتخلص غيره من مشكلة الشر ، بأن يقول : إنه شئ
لا حقيقة له ؛ بل يجهد أن يبين أن الشر ، أو مايدو لنا شرًا ، جزء من النظام
الإلهى ، والاتساق الربانى . وسأقتطف بعض العبارات من استدلاله ، وأدع
القارئ يحكم على مدى نجاحه .

وعلىنا أن نتذكر أن الصوفية يرون العالم صورة ظاهرة منعكسة لله .
والنور الربانى ، متسلسلا فى جدول من الفيوضات ، ينصب آخرًا على ظلمة
العدم ، فكل ذرة منها تعكس صفة من صفات الله . فالصفات الجميلة ، من
مثل الحب ، والرحمة ، تنعكس فى شكل السماء والملائكة ، والصفات
المخيفة ، من أمثال الغضب والعقاب تنعكس فى شكل النار والشياطين .
والإنسان يعكس جميع هذه الصفات ، المحبوب منها والمخيف على
السوء ، فهو جماع السماء والجحيم . ويلمع إلى ذلك عمر الخيام^(١) حين
يقول :

(١) عمر الخيام الشاعر الفلكى الفارسى المشهور ، وصاحب الرباعيات ، التى ذاع
صيتها ، وترجمت إلى معظم اللغات العالمية عن أصلها الفارسى . ولد بمدينة نيسابور من
أعمال خراسان ، فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الشطر الثانى من القرن
الحادى عشر الميلادى) وتوفى سنة سبع عشرة وخمسمائة (سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف
من الميلاد) ودفن بنيسابور .

محمد السباعى : رباعيات عمر الخيام : المقدمة ص ٧ - ٢٣

الجحيم شرارة من ماجل آلامنا .
والسماء نفثة من أوقات سرورنا .

دويت صاغه « فتر جيرالد Fitz Gerald » فى هذه المقطوعة الرائعة :
ما السماء إلا خيال رغبة تحققت .

وما الجحيم إلا شبح روح على النار تعذبت .
دع عنك هذه الظلمة ، التى منها عن قريب .
أرواحنا تملصت ، فسوف تموت .

فجلال الدين قد جعل الله - من وجه - موجد الشر ؛ ولكنه ، فى الوقت عينه ، جعل الشر فى الحقيقة خيرا ، حين ينسب إلى الله ؛ إذ هو انعكاس لبعض الصفات الإلهية ، التى هى فى ذاتها خير محض ، فإن يكن الشر شرا على الحقيقة ، فإنما نبع ذلك من العدم .

وقد وضع الشاعر قيما مختلفة لذلك الاصطلاح ، حين ينسب إلى الله ، وحين ينسب إلى الإنسان . فحين ينسب إلى الله لا يكون العدم شيئا ، لأن الله هو الوجود الحق ؛ بيد أنه حين ينسب إلى الإنسان يكون أصل الشر ، الذى تبني عليه نصف الطبيعة البشرية . هو فى إحدى الحالين سلب صرف ، وفى الأخرى يفور بالضرر حقيقة .

ولسنا فى حاجة إلى أن نختلف مع الشاعر ، بسبب صيرورته إلى الكتابة فى منطقته . فهناك بعض المناسبات ، حيث يكون الشعور الأخلاقى المرهف جديرا ببعض التفكير الرشيد .

ومذهب الوحدة الربانية ، يشمل فى ثناياه القضاء والقدر الأزليين .
فحيث إن الله قد كان ولا شئ معه ، فليس هاك فاعل إلا هو ،
ولا فعل إلا فعله هو ، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [سورة

الأنفال : الآية ١٧] . والجبر لا يشعر به إلا أولئك الذين لا يعشقون . ومعرفة الله حبه . ولعل العارف أن يجيب كما أجاب الدرويش الذى سئل : كيف يطعم ، فقال :

أطعم كما يطعم من بعظته يدور العالم .
وترتفع السيول ، وتفيض الأنهار ،
وتسير النجوم فى مسالكها .

ويتعلق بإشارة منه الموت والحياة .
ويطير إلى أقاصى الأرض
رسله فى السراء والضراء .

تلك هى « الحقيقة » . ولكى يعين جلال الدين من لا يقدر على إدراكها ، دافع عن عدالة الله ، بأن الإنسان يريد مايفعل ، وإن تكن إرادته خاضعة للإرادة الربانية . وهو - وقد واجه هذه المشكلة : لماذا يخلق الله الشر ويكتبه على الناس ؟ - يستدل بأن الأشياء تبين بأضدادها . فوجود الشر ضرورى لظهور الخير ! .

العدم والنقص ، حيثما كانا مرايا جمال الكون .
أين تبدو مقدره جابر العظام ،
إلا فى مريض رقد محطوم الساق ؟ .

كيف يظهر الكيميائى براعته ،
إن لم تمح البوتقة بعض خسيس المعادن ؟

وفوق ذلك ، فالقدرة الربانية الشاملة ، لا تتحقق تمام التحقق ، إن لم يخلق الشر :
هو أصل الشر ، كما زعمتم ،

ولكن الشر لا يناله ، وإنما يدل على جلاله .

استمع منى نشيدا ، الفنان السماوى قد صور
الجميل والقييح . ففى إحدى الصورتين
فواتن النساء ، فى أرض مصر ، يحملن فى شباب يوسف ،
فى افتتان ، وفى أخرى ، والفنان واحد .
نيران الجحيم ، وإبليس تصحبه شياطينه .

كلتاها صنة فريدة ، خلقت لغايات كريمة .
لتكشف عن صادق جلاله ، أو لتروع مفكرى ربوبيته .

ولو لم يستطع خلق الشر ، لكان ذلك نقصا فى قدرته .
ولذلك أوجد الكافر ، والمسلم الصادق ،
ليكونا دليلا عليه ، وليعبدوا ربا واحدا قهارا .

وجلال الدين الرومى ، إذ يتصدى للرد على اعتراض مؤداه : « إذا كان
الله قد خلق الشر ، فلا بد أن يكون هو شرًا » ، يصطنع الاستدلال المنتزع من
الفن ، فيرى أن قبح الصورة ليس دليلا على قبح المصوّر .
وفوق ذلك فلن يتأتى كسب الفضيلة الصحيحة - وهى ثمرة إخضاع
النفس - دون وجود الشر ؛ فلا بد من تفتيت الخبز قبل أن يتخذ ثريداً ؛ ولا بد
من عصر العناقيد قبل أن تتخذ من عصارتها الخمر .
وأخيراً فأكثر الشر ، شر فى الظاهر . فما يبدو لعنة للواحد يبدو رضواناً
للآخر . لا ، بل إن الشر نفسه يتقلب خيراً لدى الصالحين . ولا يرتضى
جلال الدين أن يكون شئ ما شرًا خالصا . يقول :
يبتاع ذوو الغفلة زائف النقود لشبهها بصحيحها .
فإن لم يكن فى الدنيا نقود صحيحة مضروبة ، يتداولها

الناس ، فكيف يزيف المزيفون ؟ ليس الزيف شيئاً إلا
أن يكون الحق معه حتى يجعله متميزاً . إن حب
الصواب هو الذى يوقع الناس فى الخطأ
اخلط السم بالسكر ترهم يحشون به أفواههم .

لا تقل إن العقائد كلها هراء ،
فإن بعض الحقيقة فيها .
وإلا لما خدعت أحدا .
لاتقل : يال هذه الخيالات الخالصة .
فليس خيال فى الدنيا باطل صرف .

وبين أوشاب الدراويش فقير صادق .
جوّد البحث ، وأنت لابد ستجده .

وهذا بدون ريب ، مذهب جدير بالملاحظة . وقد مات جلال الدين بعد
سنوات قلائل من مولد « دانتي Dante »^(١) ، بيد أن الشاعر المسيحي قد
وقع بمنزلة دون مستوى التسامح والمروءة ، الذى وصل إليه معاصره المسلم
بكثير .

ولكن كيف يمكن أن تدرك الروح الخيرة فى الشر ؟
يقول جلال الدين إن ذلك ممكن ، إذا اتخذت له أسبابه ، من الحب ،
والمعرفة التى يستطيع الحب وحده أن يسبغها على المرء ؛ كما وعد الله فى

(١) دانتي الليجيري Dante Alighieri أعظم شعراء إيطاليا فى مفتتح عصر النهضة ولد
سنة ١٢٦٥ م فى فلورنسا ، وقام بدور سياسى فى مسقط رأسه ، حيث قام بعدة سفارات
سياسية مختلفة . وأسندت إليه بعض المناصب الهامة ولكنه أقصى بعد ذلك بسبب الصراع
الحزبى بين (البيض Blancs) و (السود Noirs) سنة ١٣٠٢ م فاستقر حيناً فى فيرون ثم
انتقل عنها إلى رافن حيث مات سنة ١٣٢١ وأشهر مؤلفاته « الكوميديا المقدسة » .

الحديث القدسي : (ماتقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما فرضت عليهم . ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل ، حتى يحبني وأحبه . فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا . فبي يُبصر ، وبي يسمع ^(١) .

وإن من حق الحب الصوفي ، أن يعالج في فصل مستقل . ولا يتخلل القارئ أن موضوعا جديدا سيفتح أمامه ، إذ المعرفة والحب متساويان روحيا . فكلاهما يعلم من أفيض عليه الحقائق عينها التي يعلمها الآخر ، ولكن بلغة مغايرة .

(١) الرسالة القشيرية : ص ٥٥ س ٤ - ٧

الفصل الرابع

الحب الإلهي

أيما فرد كان على علم بالشعر الصوفي في الإسلام ، وإن قل هذا العلم يدرك أن شوق الروح إلى الله ، قد عبر عنه الصوفية في عبارات تكاد تكون عبارات المتغزلين ، وذوى النسيب من الشرقيين . بل إن التشابه ليشهد أحيانا ، حتى ليلبس علينا المعنى الذى أراده الشاعر ، لو لم نكن على بينة مما يريد .

ولعل هذا اللبس ، في بعض الأحيان ، أن يتخذ ذريعة لغرض فنى ، كما فى أناشيد حافظ . بيد أنه من الهين ، أن تتوهم أن قصيدة صوفية قصيدة خميرية أو غزلية ؛ حتى حين لا يدع الشاعر قراءه يتأرجحون بين السماء والأرض .

وابن عربى - وهو أعظم ثيوصوفى أنتجه العرب - رأى نفسه مجبرا على أن يكتب شرحا لبعض أشعاره ، التى شدا فيها بمفاتيح حسناؤه ، ليدفع التهمة الخاطئة عنه نفسه ^(١) . وإليك قليلا من هذه الأشعار :

ياحسنها من طفلة غرثها	تضئ للطارق ، مثل الشرج
لؤلؤة مكنونة فى صدف	من شعر ، مثل سواد السبج ^(٢)
لؤلؤة غواصها الفكر ، فما	تنفك فى أغوار تلك اللجج

(١) يقول ابن عربى : « كان سبب شرحى لهذه الآيات ، أن الولد بدرا الحبشى والولد إسماعيل بن سود كبير ، سألانى فى ذلك . وهو أنهما سمعا بعض الفقهاء ، بمدينة حلب ، ينكر أن هذا من الأسرار الإلهية ، وأن الشيخ يتستر لكونه منسوباً إلى الصلاح والدين . فشرعت فى شرح ذلك » .

ذخائر الأعلاق : ص ٤ س ١٥ - ١٩

(٢) السبج : الخرز الأسود .

يحسبها ناظرها ظبي نَقًا من جيدها، وحسن ذاك الغنج^(١) ولقد قيل : إن الصوفية قد جعلوا من ذلك الأسلوب الرمزي قناعا ، يسترون به الأمور التي رغبوا أن يكتبوها^(٢) وهذه الرغبة طبيعية ، عند قوم يدعون أنهم خصوا ، دون غيرهم ، بمعرفة الباطن . وفوق ذلك ، فإن التصريح البين بما يعتقدون ، لعله أن يهدد حرمتهم ، بله حياتهم فإن تركنا جانبا كل هذه الدوافع ، فالصوفية قد اصطنعوا الأسلوب الرمزي ، لأنهم لم يجدوا طريقا آخر ممكنا ، يترجمون به عن رياضتهم الصوفية .

والعلم بخفايا عالم الغيب المجهول ، الذي ينكشف في رؤيا جذبية ، قلما يحتاج إلى الإدعاء بأنه ليس في الطوق تبيان ، دون اللجوء إلى صور وشواهد منتزعة من عالم الحس . وهذه الصور والأمثال ، مع أنها ليست خالصة الصدق ، تكشف عن معان ، وتوحى بصور ، أعمق مما يبدو على ظاهرها . ويرى ابن عربي « أن العارفين لا يستطيعون أن ينقلوا مشاعرهم جملة إلى غيرهم من الناس ، وكل الذي يستطيعونه ، أن يرمزوا بها إلى الذين بدأوا بداهم » .

ويتوقف نوع الرمزية ، التي يفضلها الصوفي ، على خُلُقهِ وجبلته . فإن كان دَيِّنا فنانا - أعنى شاعرا روحيا - فأفكاره كذلك عن الحقيقة ، تتشع تلقائيا ثياب الجمال ، والصور المشتعلة للحب البشري . فوجنات الحبيب الموردة ، تمثل عنده ذات الله ، منكشفة في صفاته ، وغداثرها الليلية ، تصور « الواحد » محجوبا « بالكثرة » . وإن قال :

أدر الكأس علها أن تحلّ إسارك
فإنما يريد أن يقول : « امح نفسك الترابية في السكر بالتأمل الإلهي » .

(١) ذخائر الأعلام : ص ١٧٥ ، ١٧٦

(٢) يقول القشيري : « وهذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم ، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم ، بعضهم مع بعض ، والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مشتبهة على الأجانب . غير أنهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها . إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف ، أو مجلوبة بضرب تصرف بل هي معان. أودعها الله تعالى قلوب قوم ، واستخلص لحقائقها أسرار قوم » .

الرسالة القشيرية : ص ١٠ س ٢٣ - ٢٧

وإني لأستطيع أن أملأ الصفحات بأمثلة عديدة من ذلك .
وهذه الرمزية ، فى الغزليات والخمريات ، ليست طبعا بالغريبة على الشعر
الصوفى فى الإسلام . بل إنها لم تبد فى غير التصوف بمثل هذا الغنى ،
وعلى نحو ذلك من الصدق . وكثيرا ما أخطأ النقدة من الأوربيين ، حتى إن
أحدهم ليّسم الآن خمريات الصوفية بأنها « تستلهم النبذ بعض الشئ » ،
وتدفعها - فى الأغلب الأقوى - دوافع الشهوة البهيمية » . ونسبة هذه التهمة
إلى الصوفية جميعا كاذبة أصالة . ولا يجازف بذلك القول عاقل منصف ،
درس مؤلفاتهم .

ولابد لنا أن نتحقق من الأساس ، الذى أقام عليه النقدة دعواهم
واتهامهم .

من المسلم به أن بين كل أرباب نحلة أدعياء كاذبين ، وفى كل قطيع
شياحه السود . وقد كان بين الصوفية كثير من الزنادقة ، والمجان ، ومدمنى
الخمور ، فجروا قالة السوء على الإخوان الأطهار . وإذا لم يكن عدلا أن
نرمى التصوف المسيحى بهذه القالة ، لأن بعض فرقه وأفراده كانوا فاسدى
الأخلاق ؛ فليس عدلا كذلك أن نحكم على التصوف الإسلامى جملة
بفلسات هؤلاء المجان . يقول جلال الدين الرومى .

الله ساقينا والله خمرنا والله يعلم أى حب حبنا
ويعلن ابن عربى ، أن ليس دين أرفع من دين الحب ، والشوق إلى الله .
فالحب خلاصة النحل جميعا . والصوفى الصادق ، يرحب بدين الحب ،
على أى صورة تبدى :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لأوثان ، وكعبة طائف وألواح تورا ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب ، أننى توجهت ركائبه ، فالدين دينى وإيمانى
لنا أسوة فى بشر هند ، وأختها وقيس وليلى ، ثم مئى وغيلان
وقد شرح الشاعر البيت الأخير بقوله :

« ... الحب ، من حيث هو حب ، لنا ولهم ، حقيقة واحدة . غير أن

المحبين مختلفون ، لكونهم تعشقوا بكون ، وأنا تعشقنا بعين . والشروط ،
واللوازم ، والأسباب واحدة ؛ فلنا أسوة بهم . فإن الله تعالى ماهيّم هؤلاء ؛
وابتلاهم بحب أمثالهم ، إلا ليقم بهم الحجج على من ادعى محبته ، ولم
يهم في حبه هيمان هؤلاء ، حين ذهب الحب بعقولهم ، وأفناهم
عنهم ^(١) .

والكثرة الكثيرة ، من أعظم صوفية العصر الوسيط ، عاشوا عيشة نقية
حالمين بربهم منتشين به . وحين يحاولون الإفصاح عن أحلامهم - وهم
آدميون - يتخذون لغة الآدميين . فإن كانوا شعراء مطبوعين ، أنشأوا بأسلوب
جيلهم وعصرهم .

والعرب ، في الشعر الصوفي ، يعطون الجزية عن يد للفرس . ومن شاء
أن يقرأ أسرار الصوفية ، غير مشوبة بالمسائل الكلامية ، ولا مغلفة بالدقائق
الغيبية « الميتافيزيقية » ، فليرجع إلى العطار ، وجلال الدين الرومي ؛
وتوالتفهم في تناول اليد ، في الإنجليزية ، وغيرها من اللغات الأوربية . وإن
في ترجمة هذه الأناشيد المعجبة حطم لبهاؤها ، ونزول بعاطفتها المشبوبة إلى
الأرض ، إن تكن هذه الترجمة شعرا ، فأما إذا كانت نثرا ، فإنها تحجب أصالة
محبة الحق ورؤيا الجمال التي ألهمتها . أصغ إلى جلال الدين حين يقول :
جاء حبيبي . مقرا لم تر السماء ، ولن ترى ، له مثيلا . يقظان أو حالما
متوجا بشعاع خالد . لا يثنيه سيل أي سيل .

في دن حبك يارب ، غسلت روحي .
وحطمت جسدي ، دار التراب .

وحين بدأ قبلي وحيدا صُحْبَتَهُ برب الكرم
أشعلت الخمر صدري ، وملأت نوابضي

(١) ذخائر الأعلاق : ص ٣٩ ، ٤٠

فلما امتلأت عيناي بصورته ، صاح من باطني صوت :
حسننا فعلت . يارب الخمر والكأس الدائمة .

والحب . الذى أبرز فى هذا المجاز . هو العنصر العاطفى فى الدين . هو
سكر المشاهد . وشجاعة البازل . وإيمان الولي ، والأصل الأصيل للتحقق
الخلقى . والإدراك الروحى . هو - عمليا - نبذ النفس وتضحيتها . والتخلى
عن كل مملوك من مال أو جاه . أو إرادة أو حياة . وعن كل ما يضمن به
الناس . لوجه المحبوب دون تفكير فى جزاء .

ولقد أشرت . من قبل . إلى الحب على أنه المبدأ الأعلى فى الأخلاق
عند الصوفية ، فلأقدم الآن بعض الشواهد على ذلك .

أ - يقول جلال الدين :

« الحب دواء داء كبريائنا . وغرورنا بأنفسنا . وهو الطيب لضعفنا كله .
ومن استعار الحب ثوبه برئ أصالة من أثرته » .

ب - رُمى النورى والرقام وغيرهما من الصوفية بالزندقة . وحكم عليهم
بالموت . فلما دنا السياف من الرقام . تقدم النورى مبتدرا إلى السياف
ليضرب عنقه . وهو راض أتم الرضا . مبتهج أكمل الابتهاج . فدهش
الحاضرون . وقال السياف : مادعاك إلى الابتدار إلى القتل . من بين
أصحابك ؟ . فقال النورى : إن دينى يبنى على الإيثار . والحياة أعز مملوك
فى الدنيا . وإنى أثرت حياتهم على حياتى هذه اللحظة ^(١) .

ح - شوهد النورى مرة يدعو ويقول :

اللهم ! قد سبق فى علمك ، ومشيتك وقدرتك ، عقوبة أهل النار الذين
خلقتهم . اللهم ! فإن يكن قد سبق فى مشيتك ، التى لا تتخلف ، أن تملأ
النار من الناس أجمعين ؛ فإنك قادر على أن تملأها بى وحدى ؛ وأن تذهب
بهم جميعا إلى الجنة .

* * *

وعلى قدر محبة الصوفى . يرى الصوفى ربه فى خليقته جميعا . فيحبها

(١) حلية الأولياء : ج ١٠ ص ٢٥٠

جميعا . وصالحات الأعمال ، لا تساوى شَرُوى نَقِير ، إن عَرَّت عن الحب .
 أبشر أيها القلب الحزين
 فلاحسانك خير من ألف معبد تقيمها
 ولحر استعبدته يا حسانك
 يرجح ألف عبد اعتقوا .

وتضمّن « تذكرة الأولياء » قصصا عن الرأفة بالحيوان - حتى الكلاب .
 وهى نجسة عند المسلمين - وبالطيور . وبالحشرات .
 يروى أن أبا يزيد البسطامي ابتاع شيئا من القرطم بهمدان . وقبل أن
 يفصل عنها . وضع فى عباءته قليلا منه . ثم نسيه . ولما رجع إلى بسطام .
 تذكر ما فعل فأخرج الحب . فرأى فيه بعض النمل . فقال : « لقد أبعدت
 هذه المخلوقات المسكينة عن أوطانها » ثم كر راجعا ، لم يستأن بها ، إلى
 همدان ؛ وبين همدان وبسطام مئات الأميال ^(١) .
 وهذا التعاطف . الذى ينتظم العالم ثمرة من ثمرات « الحلول
 Pantheism » . ونظرة الزهد فى الدنيا ، التى سادت بين متقدمى الصوفية ،
 والإدراك المشبوب لله على أنه « شخصية منزهة Transcendent Personality »
 أكثر منه « روح باطنة Immanent Spirit » دفعتهم إلى إماتة نوازعهم البشرية فى
 عنف .

وهذه قصة قصيرة ، من حياة الفضيل بن عياض ^(٢) ، وهى إن لم تدفعنا
 إلى التأسّى بها ، فلا أقل من أنها ستلمس شغاف قلوبنا .
 جلس ذات يوم على حجره طفل له ، قد بلغ الرابعة من عمره ، تم
 تصادف أن قبّله ، كما يفعل الآباء بأبنائهم . فقال له الطفل : « أتجنّى
 يأبت ! » . فقال له الفضيل : « نعم ! » . فقال : « وتحب الله ؟ » قال

(١) الرسالة القشيرية : ص ٥٩ س ٥ ، ٦

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي ، ثم اليربوعي . خراساني من ناحية
 مرو ، من قرية يقال لها فندين . مات بمكة فى المحرم من سنة سبع وثمانين ومائة .

« طبقات الصوفية : ورقة ٢ ظ » .

الفضيل : « نعم ! » فسأله الطفل : « كم قلباً لك ؟ » فأجابه : « واحد ! »
فقال الطفل : « كيف تحب اثنين بقلب واحد ؟! » . فأدرك الفضيل أن كلام
الطفل نصيحة من الله . وفي غيرته لربه ، جعل يجلد رأسه بالحائط ، ويتبرأ
من محبته للطفل ، وأخلص قلبه لله .

* * *

وأعلى صوفية الصوفى - كما مثلها جلال الدين الرومى - ترى أن
« الكَوْن Phenomenal » طريق إلى « العَيْن Real » .

سواء هذه الدنيا أو تلك الأخرى .

سوف يفضى بك حبك وراء ذلك فى النهاية .

ويقول الجامى :

لاتصرف وجهك ، حتى عن الحب الترايى

مادام الحب الترايى سيرفعك إلى الحق

* * *

هل تستطيع فهم صحائف قرآنك

دون أن تتقن الأبجدية ؟!

* * *

سمعنا عن شيخ جاءه سالك ،

يستهديه النصيح فيما هو بسبيله .

فقال له : إن تكن خطواتك عن دروب الحب غريبة .

فاذهب وتعلم الحب ، ثم عد إلى

فإنك إن تخش شرب النبيذ من دن « المثل »

فلن تستطيع اجتراع واحدة من كأس « الأمل » .

* * *

ولكن حذار لا يؤخر « المثل » .

جاهد بما فى الوسع أن تعبر الجسر سريعاً

فإن فشلت في حمل متاعك إلى الهدف معك
فتخفف ، ولا تدع خطواتك تبطئ على الجسر
وقد لخص « إمرسون Emerson » معنى ذلك في قوله :

« المحب الذى ينظر قسّمات الجمال الربانى ، فى كثير من الأرواح ،
ويفرق فى كلّ روح بين ماهو ربانى من جمالها ، وماهو ترى نزع عن هذا
العالم ؛ هذا المحب يرمى إلى الجمال الأعلى ، إلى الحب ؛ وإلى إدراك
الربوبية فى خطوات على سلم هذه الأرواح المخلوقة » .
ويقول الهجویری :

« محبة العبد لله ، تبدو فى قلب المؤمن التقى إكبارًا وإجلالا يملؤه ،
فيتغنى رضى حبيبه . ولا يتأتى له صبر ، ولا اطمئنان ، مالم يره . ولا يجد
الراحة مع أحد غيره ، ويزداد معرفة بذكره ، ونبذا لذكر ماسواه . فالراحة
حرام عليه . والاستقرار شارد عنه . مقطوع من العادات والروابط . قد رفض
كل شهوة ، وصرف وجهه إلى عرش الحب ، ودان بشريعته وعرف الله
بصفاته معرفة التحقق » .

ومن الضروري أن مثل هذا الإنسان ، لابد أن يحب بنى جلده . وأیما
إيذاء ألحقوه به ، يذكره بيد الله ، التى تحط عنه ذنوبه بالاقتصاص منه
« وعقاب الله عين ثوابه » .

يقول أبو یزید :

إذا أحب الله عبدًا ، أسبغ عليه صفات ثلاث ، دليلاً على حبه : سخاء
كسخاء البحر ، وإحساناً كإحسان الشمس ، وتواضعاً كتواضع الأرض .
والمحب الصادق لا يستعظم بلية ، ولا يستكثر عبادة ، لفراسته وإيمانه
الخالص » .

وابن عربی يرى أن الإسلام دين الحب ، لا ريب . من حيث إن النبى قد
دعى « حبيب الله » ^(١) .

(١) يقول ابن عربی : « ما ثم دين أعلى من دين قام على المحبة والشوق ... فإن محمداً

ﷺ ، له من بين سائر الأنبياء ، مقام المحبة بكمالها ، مع أنه صفى ، ونجى ، وخليل . =

وبعض منابع هذا المذهب ، موجودة فى القرآن ؛ ولكن رافدها الأصيل دون ريب - ينزع عن المسيحية . وأقدم آثار الصوفية ، وقد كتبت بالعربية ، ولكن لم تصل إلينا منها إلا جذاذات . لسوء الحظ ، يغلب عليها التواصى ، فى إصرار ، بالخوف من الله ، سالكة فى ذلك نهج القرآن . ولكنها مع ذلك تحمل شواهد ناطقة على التأثير بالتقليد المسيحى المعارض ؛ وهو « حب الله » .

* * *

وحب الصوفية لله ، فى الإسلام وفى المسيحية ، قد انقلب إلى انجذاب ، وحماس ؛ بسبب الوقوع تحت تأثير « ديونيسيوس Dionysius » وغيره ، من كتاب الأفلاطونية الحديثة ؛ ذلك الانجذاب الذى وجد فى الخيال الحسى ، للحب البشرى ، خير وسيلة للتعبير عن نفسه .

ويلاحظ الأستاذ « إنجه Dr. Inge » أن الصوفية يبدون - وهم أسيويون أصدق ما يكون الأسيويون - وقد حاولوا أن يضيفوا صبغة رمزية قدسية ، على الانغماس فى شهواتهم . ولست فى حاجة إلى التدليل - من جديد - على أن مثل هذا رأى ، عن الصوفية الخالصة ، زائف خاطئ .

* * *

والحب - كالمعرفة - هو فى ذاته منحة ربانية ، وليس شيئاً ينال - ولو أن الخلق جميعاً أرادوا تحصيل الحب ما استطاعوا ؛ ولو جهدوا غاية الجهد فى صرفه ما وسعهم ذلك . ومحبو الله يحبهم الله . قال أبو يزيد : « توهمت أنى أذكره وأعرفه ، وأحبه وأطلبه ؛ فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكرى ، ومعرفته سبقت معرفتى ، ومحبه أقدم من محبتى ، وطلبه لى - أولاً حتى طلبته » ^(١) . وقد عرف الجنيد الحب بأنه : « دخول صفات المحبوب على البذل من صفات المحب » ^(٢) وبعبارة أخرى : « الحب هو إفناء النفس

= وغير ذلك من معانى مقامات الأنبياء ، وزاد عليهم أن الله اتخذه حبيباً . أى محبباً محبوباً .

ذخائر الأعلاق : ص ٤٠ س ١١ - ١٥

(١) حلية الأولياء : ج ١٠ ص ٣٤ س ٦ - ١٠

(٢) الرسالة القشيرية : ص ١٨٩ س ٢ ، ٣

الذاتية ، هو السكر الذى لايدلك عليه ؛ هو منة من الله ، تُبتَغى بإخلاص
العبادة ، وإدامة الدعاء :

أنت يامن قلبى فى مِضربه المتقن كرة موضوعة
لا تلتوى قيد شعرة من أمره ولا تعصى

لقد طهرت ظاهرى بما أخرجت وما صببت من ماء
وباطنى ملكك ؛ أفتبتغيه غير طاهر يارب ؟!

وجلال الدين يقول :

إن حب الإنسان ليس إلا نتيجة حب الله ، على سبيل المثال . دعا بعض
العباد ربه جهرة ، فتبدى له الشيطان قائلاً « إلى متى تشق حلقك بقولك
« الله ، الله » اطمئن ! فلن تجد رجعا لندائك » . فأحنى العابد رأسه فى
صمت ، فرأى بعد هنيهة الخضر عليه السلام ، يقول له : « لم سكت عن
دعاء الله ؟ » . فقال : « لأن « لبيك » لم تأت » . فقال الخضر : « إن الله
أمرنى أن ألقاك ، فأقول لك :

ألست أنا الذى للدعاء ناديتك ؟!
ألست أنا بالنداء شغلتك ؟!

ندائك « ياالله ! » هو جوابى « لبيك » .
وآلامك الرغبة رسولى إليك .

لتلك الدموع ، والصيحات ، والأدعية
كنت الموجه ، وقد وهبتها الأجنحة .

والحب - أسطراب الأسرار السماوية - يلهم كل دين جدير بهذا

الاسم ، ولا يصاحب الإيمان القائم على العقل ، بل الإيمان العميق ، النابت من الإلهام المباشر . وهذا النور الباطن دليله ، فمن يره يحز العلم الصادق . ولا شئ يستطيع أن يذهب بيقينه ، أو أن يزيده . ومن هنا لا يمل الصوفية التعريض بتفاهة كل اعتقاد دعامته الأدلة العقلية ، والقوة الظاهرة ، ومآرب النفس وأهوائها ، أيما كانت . فجدل الكلاميين المجذب ، وتقوى المرائين المصطنعة ، يغرسونها في شعائر ومظاهر والعبادة التي تقل عن هذه اسفافا ، وإن استوت معها في أنها غير خالصة لله ، وهي العبادة التي تدفع إليها الرغبة في كسب الجنة في الآخرة ، ومثلها الانقطاع الذي لم يخلص كله لله ، ينقطعه الصوفى ، فهو - وإن أحب ربه - يفكر في نفسه على أنه محب ، وليس قلبه خالصا عن الأغيار ، كل هذه الألوان من العبادات حجب لا بد أن ترال .

ولعل كلمات قلائل ، من هؤلاء الذين عرفوا الحب ، أجدى مما قدمت من إيضاح .

١ - تقول رابعة : « إلهى ! إن كنت أعبدك مخافة النار فحرقنى فيها ، وإن كنت أعبدك رغبة فى الجنة ، فأبعدنى عنها ، وإن كنت أعبدك لذاتك فلا تصرف عني جمالك السرمدى » .

٢ - ويقول أبو يزيد البسطامى :
« أحباب الله ، وإن حال حبهم له بينهم وبينه ، فإن لديهم شيئا أصيلا ، يطلبون ويطلبون . نائمين أو مستيقظين لا يشغلهم طلبهم ولا حبهم ، ولكنهم سكارى فى تأمل المحبوب . ومن الإثم فى حق الحبيب ، أن تنظر فى حبه . ومن العسف فى الحب أن تبحث عن طلبك ، وأنت وجهًا لوجه مع المطلوب » .

٣ - ويقول :
« لقد دخل حبه فغلب حب الأغيار ، ولم يدع لشيء آخر أثرا . فبقى واحدا كما أنه هو واحد » .

٤ - ويقول الشبلى :
« لأن تحس أنك واحد مع الله ، خير من عبادة الناس جميعا ، من بدء

الدنيا إلى غايتها » .

٥ - ويقول ذو النون :

« خوف النار ، إذا قيس إلى خوف القطع عن المحبوب ، كقطرة الماء تقذف في أعظم المحيطات » .

٦ - ويقول جلال الدين الرومي :

مالم أتوجه بقلبي إليك
أعد صلاتي غير جديرة بأن تُعَد صلاة .

إن جعلت وجهي إلى الكعبة ، فذلك لحبك
ولولاه لانصرفت عن الصلاة ، وعن الكعبة جميعاً .

والحب - أخيراً - إلهام رباني للروح ، يقهرها على أن نتعرف طبيعتها ،
وأن نتعرف ما أوجدت من أجله . والروح أسبق موجودات الله جميعاً ؛
عاشت وتحركت ، وأضحى لها فيه وجود ، قبل أن يخلق العالم . وهي
خلال ظهورها الترابي ، غريب في منفى ، يحن دائماً إلى العودة إلى داره :

ما الحب إلا أن تطير إلى السماء صُعُداً
فترفع في كل لحظة مائة حجاب
واللحظة الأولى التي ترفض فيها الحياة
هي الخطوة الأخيرة ، ثم ترحل طائراً

اعتبارُ هذا العالم ، كأنه لا يقع تحت بصرك
يكون بالأنا تنظر إلى ما يبدو لنفسك

وقصص الحب جميعًا ، وكذلك مجازات الشعر الصوفي ، من أمثال قصص ليلي ومجنونها ؛ ويوسف وزليخا ؛ وسليمان وبلقيس ؛ والفراسة والقنديل ؛ والعنديل والورد ؛ هذه القصص ظلال لهيام الروح العنيف في أن تتحد بربها .

وليس في الطوق أن أقدم للقارئ ، من الكنوز التي حشدها خيال الشرق الدافق ، في كل قاعة من قاعات هذا القصر المسحور ، أكثر من اللوحة السابقة وذلك لضيق المجال المضروب .

وقد تمثل الروح بالحمامة النواحة ، التي فقدت إلها ؛ وبالقصة نزع من مغرسها ، ثم جعلت شَبَّابة ، تملأ أنغامها الهادئة العين بالدموع ؛ وبالبازي دعاه صفير الصائد ليحتم على معصمه ؛ وبالثلج تزييه الشمس ، فيصاعد بخارا إلى السماء . وبالجمل الهائج ، انطلق على وجهه في الصحراء ليلا . وبالبغاء يحتجزها القفص . وبالسمة على يابس الأرض . وبالجندى البسيط يتغنى أن يكون ملكا وهذه التمثيلات تدل على أن الله عندهم « منزّه Transcendent » وأن الروح لا تستطيع الوصول إليه مالم تتخذ مادعا « أفلوطين Plotinus » في عبارة بليغة « الفرار من الواحد إلى الواحد » . يقول جلال الدين :

كل ذرة منجذبة إلى منبعها
وسيصير الإنسان إلى الشئ الذي أكب عليه .

والروح والقلب ، يدافع الشغف والوله .
سوف يتخذان صفات « المحبوب » . والمحبوب روح
الأرواح .

« وسيصير الإنسان إلى الشئ الذي أكب عليه » إلى أي شئ يصير
الصوفي ؟!

أما « إكارت Ekhart » . في إحدى عظاته . فقد اقتبس قول « القديس

أوغسطين^(١) Saint Augustione « الإنسان ما أحب » ثم عقب عليه بقوله :
 « إن هو أحب حجرا فهو حجر . وإن هو أحب إنسانا فهو إنسان . وإن هو
 أحب الله - وحسبى فلن أزيد - فلعلنى إذا قلت « هو الله » أن ترجمونى » .
 والصوفية المسلمون قد تمتعوا بنصيب من حرية القول أكثر من إخوانهم
 المسيحيين ، الذين خضعوا للكنيسة الكاثوليكية فى العصر الوسيط .
 والصوفية إن أبعدوا فى الشطح ، ففى الانجذاب لهم عذر مقبول . وسواء
 عليهم إن هم أكدوا القول بما بطن أو ظهر من وجهى « الاتحاد » ؛ بتنزيه الله
 أو بطونه فى خليقته ، فإن عباراتهم قوية طليقة . هذا أبو سعيد بن أبى الخير
 يقول :

أنت فى قلبى تُقيم سوف أملأه بغير الدم
 أنت فى عينى تنير ، سوف أضعها فى غير الدمع .

لا تود روحى إلا أن تتحد بك .
 وسأسلها من جسدى على وجه من الوجوه .

ويرى جلال الدين الرومى أن حب الروح لله هو حب الله للروح ، وفى
 حب الله للروح يحب نفسه ، ذلك لأنه يُرجع إلى نفسه ما اغترب ، مما هو
 فى ذاته روحانى .
 ويقول الشاعر :

« لقد تبدل نحاسنا بهذه الكيمياء النادرة » .
 يعنى أن عنصر النفس المنحط قد تجوهر وتطهر .

(١) القديس أوغسطين أشهر آباء الكنيسة اللاتينية (٣٥٤ - ٤٢٠ م) مال إلى التدين
 والتعب ، بعد شباب طائش . ثم صار لاهوتيا فيلسوفا ، وعالم أخلاق وجدليا . وحاول أن يوفق
 بين المسيحية والأفلاطونية الحديثة . وأشهر مؤلفاته : « الاعترافات Les Confessions »
 « مقال عن الغفران Traite de la Grace » وقد كان أوغسطين أسقف مدينة هيون القديمة ،
 بالقرب من مدينة بونة فى الجزائر .

ويقول في أنشودة أخرى :

ياروحي ! بحثك من طرف إلى طرف فما رأيت فيك غير المحبوب .
ياروحي ! لا تسميني مشركا إن قلت : أنت هو .

وأكثر من ذلك وضوحًا قوله :
أنت يامن عن الله يبحث وله يتعقب
لست بحاجة إلى البحث ، لأن الله أنت ، أنت

لِمَ تبحث عن شيء لا يفقد أبدا ؟
ليس غيرك كائن ، ولكن أين أنت ، أين أنت .

أين يكون المحب حين يتبدى المحبوب ؟ ليس له مكان ، وهو في كل
مكان فنيت عنه شخصيته ، وفي قاعة الجلوة لواحدانية الله يقام حفل زواج
الروح الممكنون .

الفصل الخامس

الأولياء والكرامات

لنفرض أن مسلماً من أوساط الناس يستطيع أن يقرأ الإنجليزية ، وأنا وضعنا بين يديه واحداً من هذه المجلدات الضخمة ، التي تنشرها « جمعية المباحث النفسية Society for Psychical Researches » ؛ فلكى نشاركه أحاسيسه في هذا الوادى ، علينا أن نتخيل شعورنا نحن ، لو أن صديقاً عالماً دعانا لدراسة بحث يعرض حقيقة « البرق » ، ويسجل أمثلة من الاتصال البرقى ، قد أجيد اختبارها .

ولعل المسلم أن يرى فى البرق نوعاً من الأرواح ، عفريت ، أو جنى . وهو يسلم « بالتلباى Telepathy » ^(١) وأمثاله من الظواهر الخفية على أنها حقائق ثابتة فى نفسها ، ولايقع له أصالة أن يبحثها ، ففى تركيب عقله شئ يمنعه من البحث ، إن هو عرض للرأى القائل بأن الغيبات قد تكون خاضعة لقانون . وهو يعتقد - ولايد له فيما يعتقد - فى حقبة عالم مستور ، يقع بين ظهرائنا ، لافى خيالنا وحده ، بل فى كل زمان ومكان ، عالم لا انفصل عنه بأى سبيل ، وفى الطوق الوصول إليه ، وقد ينكشف فى بعض الأحوال للجميع ، وإن تكن الصلة الخالصة المتمكنة معه ميزة ينعم بها قلة من الناس ، فكثرة مدعوة وقلة مختارة .

الأرواح كل ليلة من أحبولة الجسد ،

(١) هذه الكلمة مكونة من أصلين يونانيين : من « Tele » ومعناها « بعيد » ، ومن « Pathos » ومعناها « انفعال » . وإذا فالمعنى الحرفى للكلمة هو « انفعال من بعيد » ويمكن أن تقابل مقابلة غير تامة بالكلمة الصوفية (الكشف) . وهم يطلقون « التلباى » على : « الإحساس الذى يتصل بحادثة واقعة ، يحسه الشخص فى اللحظة التى تقع فيها ، على أن يكون وقوعها فى مكان بعيد ، أو بحيث يكون الإدراك الحسى مستحيلاً استحالة مادية .

أنت تحررها وتجعلها صحيفة بيضاء (١)

تطلق الأرواح فى كل مساء من هذا القفص
حرّة لاتحكّم أحدا ولا يملكها أحد .

فى الليل ينسى السجناء سجنهم
فى الليل ينسى الملوّك بأسهم .

فلا أسى ، ولا احتضان للكسب والخسارة .
ولا تفكير فى هذا الشخص ولا ذاك .

وتلك حال العارف حتى ولو كان مستيقظا
يقول الله ﴿ وَحَسْبُهُمْ أَنْفَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾

[سورة الكهف : الآية ١٨]

إنه راقد ليله ونهاره عن أحوال هذه الدنيا
كالقلم فى يد الله المهيمنة .

والصوفية لا يفتأون يعلنون عن اعتقادهم فى أنفسهم أنهم أمة الله
المختارة . وقد أشار القرآن ، فى مواضع عدة منه ، إلى من هم عند الله
﴿ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِرِينَ ﴾ [سورة ص : الآية ٤٧] . وينسب هذا اللقب - جريا مع
صاحب اللع - إلى الأنبياء أولا ، فهم مختارون لعصمتهم وإلهامهم
ورسالتهم . وينسب ثانية إلى جماعة خاصة من المسلمين ، وهم مختارون
لتقواهم الصادقة ، وإعانتهم أنفسهم الأمارة بالسوء ، واستمساكهم الشديد
بالحقائق الربانية ، وفى اختصار ، هم الأولياء . وإذا كان الصوفية هم

(١) باستئصال التأثيرات الجسدانية ، التى تقوم حجابا بين الروح وبين عالم الحقيقة .

المختارون بين جماعة المسلمين ، فإن الأولياء هم المختارون بين جماعة الصوفية .

والولى المسلم نطلق عليه فى الإنجليزية « Moslem Saint » وجمع الولى أولياء وقد استعملت هذه الكلمة فى معان مختلفة ، مأخوذة من معناها الأصلي « الولى » ^(١) فاستعملت فى « الصهر ، والحليف ، والمتولى أمرك ، والصديق » وقد نسبت فى القرآن إلى الله تعالى على أنه ﴿ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [سورة البقرة : الآية ٢٥٧] ، وإلى الملائكة ، والآلهة يتخذونها من الأوثان ، ثم يظنون أن هؤلاء أو أولئك يغنون عنهم شيئاً ، وإلى قوم اعتبروا خاصة تحت عين العناية الربانية ^(٢) .

وقد عاتب محمد اليهود ^(٣) على دعواهم أنهم أولياء الله . والكلمة ، رغم ملاساتها الغامضة ، قد اصطنعها الصوفية ، وأضحت علماً شائعاً على فريق أدنتهم رابانيتهم من الله ؛ وتلقوا من ربهم خاص رضوانه ؛ وأعنى بها الكرامات . فهم الذين ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ؛ والسوء يراد بهم من أحد من البشر ائذان الله بالحرب ^(٤) . وإلهام الأولياء ، وإن فرق فى اللفظ بينه وبين إلهام الأنبياء ، وكان دونه فى الدرجة ، إلا أنهما من واد واحد . يرفع الحجاب الذى كان يغشى ما وراء الطبيعة - أو كما يقول المسلمون « عالم الغيب » - ويحول بين بصائرهم وبينه بسبب صدق حالهم

(١) انظر لسان العرب : فى مادة « ولى » .

(٢) يقول الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [سورة يونس : الآية ٦٢]

(٣) يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ أَنْبَأُكَ اللَّهُ وَاجْتَبَاكَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ [سورة المائدة : الآية ١٨]

(٤) عن عائشة رضى الله عنها ، قالت ، قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعالى : من آذى لى ولية فقد استحل محاربتى . وماتقرب إلى العبد بمثل أداء ما افترضت عليه . ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل ، حتى أحبه . وما ترددت فى شئ أنا فاعله ، كترددى فى قبض روح عبدى المؤمن ، لأنه يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه) .

الرسالة القشيرية : ص ١٥٢ س ٣٨ - ٣١

مع الله . ولا يصير المسلم وليا لفقيهه مسائل الدين ، ولا لإكبابه على صالح الأعمال ، ولا لزهادته فى الدنيا ، ولا لطهارة خلقه . وقد يكون له ذلك كله ، وقد لا يكون له شئ منه ، ولكن الذى لا بد منه هو السكر والجذب ، فتلك علامة ظاهرة على الفناء عن النفس الترابية . ومن كان مجذوبا فهو ولى . فإذا عرف هؤلاء الناس بفعل الكرامات عظموا على أنهم أولياء ، لا بعد مماتهم فحسب ولكن أثناء حياتهم كذلك . وكثيرا ما عاشوا وماتوا مغمورين لا يعرفهم إلا قلة من الناس . ويحدثنا الهجویری أن بین الأولياء أربعة آلاف مستورين ، لا يعرف بعضهم بعضا ، ولا يعرفون فضل حالهم . وهم فى كل حال مستورون عن أنفسهم وعن كافة الناس .

وللأولياء « حكومة باطن » يرون أن عليها يتوقف نظام العالم . ورأس هذه الحكومة الأعلى يسمى « القطب » وهو أرفع صوفية عصره ، وإليه رأسة الاجتماعات ، التى يعقدها فى انتظام مجلس شوراه الموقر . وأعضاء هذا المجلس لا يعوقهم عن الحضور حواجز الزمان والمكان ، وإنما يأتون من أرجاء الأرض فى لمحة طرف . يعبرون البحار والجبال والصحارى ، فى يسر بالغ ؛ كما يسير عوام البشر فى السبيل الممهد . ودون القطب تقوم طبقات ودرجات مختلفة من الأولياء . وقد عدها الهجویری ، فى ترتيب تصاعدى كما يلى : الأختيار الثلاثمائة ، فالأبدال الأربعين ، فالأبرار السبعة ، فالأوتاد الأربعة ، فالنقباء الثلاثة . وهؤلاء جميعا يعرف الواحد منهم الآخر ولا يعمل الواحد منهم إلا برضى الباقين . وعمل الأوتاد الطواف حول الأرض جميعا كل ليلة ، فإن كان هناك مكان لم تقع أعينهم عليه بدت فيه فى اليوم الثانى شائبة نقص ؛ فيخبرون القطب ، حتى يجعل همه إلى ذلك المكان المشوب ، فيبرأ مما أصابه بفضل القطب .

ونحن ندرس فى هذا الكتاب الحياة الصوفية للفرد المسلم . ولابد لنا أن نقصر الموضوع على أضيق الحدود . ووددت من وجه آخر لو أننى استطعت دراسة التكوين الخارجى والتاريخى للصوفية دراسة فاحصة ، من حيث إنها مدرسة للأولياء ؛ وأن أصف طريقة التطور ، التى يبدأ الولي فيها بالحديث إلى

طائفة من خاصته ؛ يصير فيها أولا أستاذهم وقائدهم الروحي ، فيجمع المريدين حوله خلال حياته ؛ ثم يصير رأس جماعة دينية دائمة تحمل اسمه في النهاية . وأقدم هذه الجماعات العظيمة ، التي تؤاخي الناس في الله ، يرجع تاريخها إلى القرن الثاني عشر . وتضم كل طائفة من هذه الطوائف إلى جانب خاصة رجالها - الذين يقال لهم الدراويش - عدد كبيرا من عوام الإخوان ، وبذلك ينتظم تأثيرها مختلف طبقات الجماعة الإسلامية . وهم أحرار ، يعملون من أنفسهم على الرقي بأنفسهم ، ويقوم بينهم سباق ، ولكن لا يتسود واحد منهم على البقية ، ولكل وجهته الخاصة في العقيدة والعمل ، لا يحدها شئ غير الروح العامة للإسلام . وإنه وإن أمكن للمذاهب الغريبة ، والنقائص الخلقية ، أن تنمو في يسر ، لا يكثر لخطرها أحد ، فإن الحرية قد سلمت وغنمت (١) .

والولي المثالي لا يستطيع - طبعا - أن يوجد جماعة دينية . ولكن الإسلام مع ذلك قد أنتج رجالا خلطوا - على وجه واسع - بين الإشراق الروحي القوى ، وبين الحيوية الخالقة ، والمقدرة على ممارسة شئون الحياة ؛ لا يقل شأنه في ذلك عن شأن المسيحية . والرأي الإسلامي في الولي من أنه شخص استأثر الله به (٢) ، لا يحول دون تطبيق بالغ الاتساع لهذا الاصطلاح ، وهو في الاستعمال العام يشمل أعظم الصوفية الشيوصوفيين ، من أمثال جلال الدين الرومي ، وابن عربي ؛ كما يشمل هؤلاء الذين لم يُقَلَّ عنهم إنهم أولياء إلا لفقدهم عقولهم ، كضحايا الصرع واضطراب الأعصاب ، والمعتوهين من أنصاف المجانين ، والمجانين الذين لا يؤذون أحدا .

(١) Macdonald: The religious Attitude and Life in Islam P. 164

(٢) يقول القشيري : « الولي له معنيان » فعيل « بمعنى » مفعول « وهو من يتولى الله سبحانه أمره ، قال الله تعالى : ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ ، فلا يكله إلى نفسه لحظة ، بل يتولى الحق سبحانه رعايته . والثاني « فعيل » ، مبالغة من « الفاعل » ، وهو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته ، لعبادته تجرى على التوالي ، من غير أن يتخللها عصيان . وكلا الوصفين واجب ، حتى يكون الولي وليا . يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء ، ودوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء .

الرسالة القشيرية : ص ١٥٢ س ١ - ٥

والقشيري^(١) ، ومثله الهجویری ، قد درس مسألة إدراك الولی لولایته ، وهل فی طوقه ذلك ، ثم أجاب علیها بالإيجاب . ورد معارضوه بأن معرفة الولی أنه ولی تستلزم الاستیثاق من النجاة ، وهو أمر غیر ممكن ، حیث لا یستطیع أحد أن یتأكد أنه سوف یكون بین الناجین يوم القيامة . وردٌ علی ذلك بأنه یجوز أن یعلم الولی أن نجاته المقدرة كرامة له ، ثم یحفظ علیه صفاءه الروحی ، ویحجزه عن المعصية . ولیس الولی معصوما كالأنبیاء ، ولكن العناية الإلهية التي یحظى بها ضمان من أن یسلك السبل الآتمة ، وإن أمكن أن یضل فی بعض الأحيان . وتتوقف الولاية علی الإیمان ، لا علی السلوك ، جریا مع الرأى الغالب . ومن أجل ذلك لا یذهب بها إثم من الآثام غیر الكفر بالله . وهذه النظرية الخطرة ، التي تفتح الباب للإباحية ، قد هُذبت بالتشديد فی السیر علی نهج الشریعة . وهذه إحدى ذکریات أبی یزید البسطامی ، تعرض الوضع الواجب لجميع كبار الصوفية ، الذین تعتبر أقوالهم حجة ، فی جميع الكتب الإسلامية الهامة . قال أبو یزید : « قم بنا حتی ننظر إلى هذا الرجل ، الذی قد شهر نفسه بالولاية ، وكان رجلا مقصودا مشهورا بالزهد . فمضینا إلیه ، فلما خرج من بیته ودخل المسجد ، رمى ببصاقة تُجاه القبلة . فانصرف أبو یزید ، ولم یسلم علیه ، وقال : هذا غیر مأمون علی أدب من آداب رسول الله ﷺ . فكیف یكون مأمونا علی ما یدعیه ؟! »^(٢) .

وکیرون من الأولیاء یرون فی الشریعة ، حدا یجب التزامه ، مادام المرء سالکا سبیل المریدین ، فأما إذا صار ولیا فیجوز له أن یتخطاه . وهم یصرون علی أن هذا الإنسان قد وصل إلى مرتبة أعلى من مرتبة عوام الناس ؛ ولا یجوز أن یرمى بالزیغ لأعمال تبدو فی ظاهرها مخالفة للدين . وإذا أصر متقدمو

(١) یقول القشیری : « اختلفوا فی أن الولی هل یجوز أن یعلم أنه ولی أم لا . فمنهم من قال : لا یجوز ذلك . وقال إن الولی یلاحظ نفسه بعین التصغیر ، وإن ظهر علیه شیء من الكرامات خاف أن یكون مكرًا » .

الرسالة القشيرية : ص ١٥٣ س ١٠ - ١٤

(٢) الرسالة القشيرية : ص ١٨ س ٢ - ٧

الصوفية على أن الولي الذي يتعدى حدود الله ، يدلل بذلك على افتعاله
الولاية ؛ فإن الاعتقاد العام في الأولياء ، والنمو السريع لعبادتهم ، يميل إلى
تعظيم الولي على حساب الشريعة ، وإلى تغذية الاعتقاد بأن الرجل الذي
ترعاه عين العناية الربانية ، لا يستطيع أن يقارف المآثم ، أو لايجوز الحكم
على أعماله بظاهرها على الأقل .

والمثال المشهور عن هذا « الحق الإلهي Jus Divinum » الذي يحظى به
أحباب الله ، هو قصة موسى والخضر ، التي قصها القرآن ^(١) . والخضر -
ولم يذكر القرآن اسمه - رجل فطن غامض ، قد وهب البقاء أبد الحياة ،
يقال عنه إنه يتحدث إلى رحالة الصوفية ، فيأخذون عنه علمه اللدني . وقد
رغب موسى أن يصاحبه في رحلة حتى ينتفع بعلمه ، فقبل الخضر على ألا
يبدأه موسى بالسؤال ، ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا
لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ
لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا
فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ [سورة الكهف :

الآيات ٧٠ - ٧٤] فلما نقض موسى عهده بالتزام الصمت مرة ثالثة ، عزم
الخضر على فراقه ؛ وقال ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أَوْيَلَ مَا لَمْ
تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ
أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ
فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [سورة الكهف : الآيات ٧٨ - ٨٠]

والصوفية مولعون باقتباس تلك الحجة التي لا ترد ، واتخاذها دليلا على
أن الولي يعلو على النقد البشري ، وأن يده - كما يؤكد جلال الدين - مثل
يد الله سواء بسواء . وأكثر المسلمين يرون صحة هذه الدعوى . كما
يتحاشون تطبيق المقاييس المتواضع عليها في الأخلاق على الأولياء . وقد
بينت صحتها من الوجهة الغيبية (الميتافيزيقية) في فصل سابق .
ومايقع من الولي يسمى (كرامة) أي فضل يسبغه الله عليه . فأما مايقع

(١) سورة الكهف : الآيات ٦٠ - ٨٢

من النبي فيدعى (معجزة) أى عمل لا يستطيع أحد من كافة البشر ، غير النبي ، أن يأتى بمثله . ولقد تأصلت التفرقة بين المعجزة والكرامة فى « الجدليات وعلم الكلام » ؛ واتخذت ذريعة للرد على الذين يرون فى نسب قوى خارقة للأولياء . افتئاتاً على منزلة الرسل .

والمعتذرون من الصوفية ؛ وإن اعترفوا أن الكرامة والمعجزة متماثلتان فى الجوهر ، قد لاقوا المتاعب فى التمييز ^(١) بين خصائص كل . وقد أعلنوا فوق ذلك . أن الأولياء شهود الأنبياء وأن جميع كراماتهم مثل « قطرة من ظرف امتلأ عسلاً » ^(٢) وأن هذه الكرامات مستمدة فى الحقيقة منهم . وهذا هو رأى السنى . وقد أخذ به الصوفية المسلمون ، الذين اعترفوا بالشرعية اعترافهم بالحقيقة . وإن لم يزد بعض الأحوال - إلا قليلا - على أن يكون رأيا متورعا . وكثيرا ما أدركنا العنت ، الذى وجده الصوفية ، حين حاولوا توفيقا منطقيا مع الإسلام . بيد أن كلمة « منطق » غرارة فى هذه الناحية .

وفجر التبصر ، عند الباحثين فى الأديان الشرقية من الأوربيين ، يبدأ حين أدركوا استقرار هذه العقائد المتنافرة ، آمنة مجتمعة ، فى الذهن الشرقى ، وأن صاحبها لا يدرك أصالة ما بينها من تنافر ، وهو لذلك صادق الإيمان بها . وحين أقول إنها عقائد متنافرة ، أعنى طبعاً أنها عقائد لا تستطيع عقولنا أن تؤلف بينها . والمتناقضات التى تتراءى ملعلة لأعيننا لاتضايقه أصالة . وعنصر الخوارق فى الصوفية الباكورة لم يبلغ من الأهمية ما بلغه بعد فى عبادة الأولياء ، التى بلغت أشدها فى قيام « طرق الدراويش » . يقول القشيري : « ظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه فى أحواله » ^(٣) ويغلب أن تلقى فى حياة الصدر الأول أقوالا تحط من قدر الخوارق . بل ترى فى

(١) انظر الفصل القيم الذى عقده القشيري فى رسالته تحت عنوان (كرامات الأولياء) .

الرسالة القشيرية : ص ٢٠٦ - ٢٢٨

(٢) قال أبو يزيد البسطامي : « مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام كمثل زق فيه عسل ، ترشح منه قطرة . فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء ، وما فى الظرف مثل ما لبنينا » .

الرسالة القشيرية : ص ٢٠٧ س ٣٠ - ٣١

(٣) الرسالة القشيرية : ص ٧٠٦

الخوارق شيئاً تافها قليل الأهمية . وقد قال سهل بن عبد الله : « أكبر الكرامات أن تبدل خُلُقًا مذموماً من أخلاق نفسك بخُلُقٍ محمود »^(١) . وذكر كتاب اللمع كثيراً من الأولياء الذين كانوا يكرهون الكرامات ، ويرونها ابتلاء من الله . قال أبو يزيد البسطامي « كان في بدايتي ، يريني الحق الآيات والكرامات ، فلا ألتفت إليها فلما رأني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلاً »^(٢) .

ويرى الجنيد أن الاتكال على الكرامات أحد الحُجُب ، التي تمنع المختار من النفاذ إلى صومعة الحق المحجبة . ولقد كان ذلك مذهبا يعلو على أفهام عوام الناس ، وتأتي دونه أفكار الغالبية الساحقة من المسلمين ؛ فكانت الغلبة أخيراً لفكرة العوام في الولاية ، على الفكرة الشيوصوفية الصوفية . وهذه التحذيرات والتنبيهات قد جرفها ذلك الميل لعبادة الأولياء ، وهو ميل عارم لا يقاوم ، ميل ألغى كل توكيدات محمد الجليلة ، في أنه ليس صاحب مخارق وخوارق ؛ وصير النبي البشري ، الذي يعرفه التاريخ ، صانع معجزات . والرغبة العامة في الكرامات قد بالغت في توسيع مواردها وتعميمه ، فإذا فشل الأولياء فإن الخيال الخصب الطُّوع يخف لنجدتهم ، ويصورهم على النحو الذي يجب أن يكونوا عليه ، لا على النحو الذي هم عليه . وبتوالي السنين تعاظم أمر الأقايصص ، وزادت غرابتها ، بالجديد تستمد من محيط الخيال الشرقي ، ذلك الخيال الذي لاتدرك أغواره . وما تظاهر به الأولياء أنفسهم ، أو نسج حولهم ، اضطردت زيادته ، وما روى عنهم من الأقايصص صار أمعن في الخيال والمبالغة . وسأقصر البقية الباقية من هذا الفصل على صورة الولي ، كما يظهر فيما خلفه الأدب الضخم ، في العصر الوسيط عن الموضوع .

لا يقول الولي المسلم ، إنه أتى بالكرامة من عنده ، ولكنه يقول : « إني قد منحت كرامة ، أو ظهرت على يدي كرامة » . وقد يكون مدركا أتم

(١) ذكر عند سهل بن عبد الله رحمه الله الكرامات ، فقال : « وما الآيات !؟ وما الكرامات !؟ شئ ينقضي لوقته . ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خُلُقًا مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود » .

اللمع : ص ٢٣٤

(٢) اللمع : ص ٣٢٤

الإدراك حين تظهر الكرامة على يده ، كما يذهب إلى ذلك البعض ، ولكن أكثر الصوفية على أن هذا الظهور لا يقع في الصحو بل في السكر ، حين يكون الولي أصالة في القبضة الربانية ، فشخصيته حينئذ في غيبوبة ، ومن يعارضه يعارض القدرة الربانية تنطق بلسانه ، وتبطش بقبضته . ويروى جلال الدين ، عن أبي يزيد البسطامي ، الولي الفارسي المشهور ، أنه كثيرا ما قال في جذبه إنه هو الله ، وحين يرجع إلى نفسه ، ويعلم مانطق به لسانه من ألفاظ الكفر ، يأمر مريدیه أن يَنْحَسُوهُ بِمُدَاهِمُ إن هو عاد إلى ارتكاب ذلك المأثم . ويضرب جلال الدين لذلك مثلا ، هو كالسلاح ذي الحدين ، رجلا أصابه مس من الجن . ودعني أعرض على عينيك المقطوعة التالية ، أقتبسها عن ترجمة « هو ينفيلد Whinfield » لبعض مقطعات « المشنوى » .

غطى سيل الجنون على عقله
فتفوه بألفاظ أمعن في الضلال من التي تقدمتها

* * *

قال : ما في جُبتى غير الله
سواء طلبتموه في الأرض أم في السماء

* * *

فَجُنَّ جنون مُريدیه من الفرع
ومالوا على جسده المقدس بِمُدَاهِمُ

* * *

وكل واحد ممن قصدوا جسد الشيخ
ارتدت إليه طعنته فجرحته
ولم تصب ضربة واحدة ذلك الرجل ذا المواهب اللدنية
أما المُريدون فقد جُرحوا ، وغرقوا في سيل من الدماء

* * *

وهنا يصل الشاعر إلى غايته حين يقول :
أنتم ، أيها الذين يطعنون بأسيا فهم من رقى بنفسه

احذروا فإنكم تطعنون أنفسكم

لأن من رقى بنفسه فقد فنى ونجا
نعم قد أقام فى طمأنينة دائمة

لقد تلاشى شخصه وليس إلا مرآة
لا يُرى فيها شئ غير انعكاس صورة الغير

إن أنت بصقتَ عليها بصقتَ على وجهك
وإن أنت طعنتها طعنتَ نفسك
وإن رأيتَ فيها وجهًا دميًّا فهو وجهك أنت
وإن رأيتَ فيها عيسى فأنت مريمه

وليس هو شيئًا من ذلك ؛ لقد تخلى عن الهيئة
إنها هيئتكَ أنت ، التى تترد منعكسة إليك

وحياة أبى الحسن الخرقانى ؛ وأبو الحسن صوفى فارسى آخر ، قضى
نحبه عام (٤٢٥ هـ - ١٠٣٣ م) تعطينا صورة كاملة للاتحادى الشرقى ،
وتكشف عن العظمة ، ممتزجة بسمو الخلق ، فى وضوح وجلاء ، كما
يحب الإنسان . والنص الأصل يستغرق خمسين صحيفة ، ولذا فأنى سأنقل
جزءا صغيرا منها هاهنا :

قال الشيخ مرة : لقد جرح قُطَّاعُ الطرق الليلةَ خَلْقًا كثيرًا - وعين
عدددهم - فى مفازة كذا ؛ فلما سألوا عن ذلك ، وجدوا خبر الشيخ صادقا
غاية الصدق . ومن العجب أن تُقطع فى الليلة عينها رأس ولده ، وتوضع على
عتبة داره ، ولا يدرى من أمرها شيئًا . قالوا : فصاحت امرأته - وكانت
لا تعتقد فيه - قائلة : « ما تظنون برجل يحدث بأشياء تقع على بُعد فراسخ

عدة ، ولا يدري مع ذلك أن رأس ولده قد قُطعت وأُلقيت على بابه ! » فقال الشيخ : « نعم ! حين رأيت ذلك ، كان الحجاب قد كُشِفَ عني . فأما حين قُتل ولدي فقد أرسل على ثانية » .

وجمع أبو الحسن الخرقاني قبضته ذات يوم ؛ ثم أطلق خنصره وقال : « هاهنا القبلة لمن شاء أن يكون صوفيا » ، فلما نقل ذلك إلى الشيخ الأكبر ، الذي كان يرى في وجود القبلتين معًا افتتات على الوجدانية الربانية ، صاح : « سادع القبلة الأولى إلى الثانية ، مادامت قد ظهرت » . فلم يستطع بعد ذلك حاج أن يصل مكة ؛ فمن هلكى في الطريق ، إلى آخرين قد سقطوا في أيدي اللصوص ، أو مُنعوا بغير ذلك من الأسباب من تأدية حجهم . فلما كان العام القابل ، قال أحد الدراويش للشيخ الأكبر : « أى معنى فى منع الناس من بيت الله ؟! » . فعندئذ أشار الشيخ إشارة ، سلك بعدها الطريق . فقال الدراويش : « على من يقع إثم قتل هؤلاء الذين قتلوا ؟ » فأجاب الشيخ : « إذا اضطرعت الفيلة فمن يهتم ببضعة من مساكين الطير أن تداس فتقتل ؟! » .

وسأل بعض الناس - وكانوا على رحلة - أبا الحسن الخرقاني ، أن يعلمهم دعاء يحفظهم من مخاوف الطريق . فقال لهم : « إن أصابكم سوء فى الطريق ، فاذكروا اسمي » فلم يرقهم ذلك . ثم فصلوا ، فلما كانوا فى رحلتهم ، خرج عليهم قطاع الطريق . فذكر رجل منهم اسم الشيخ فاختنفى تَوًّا عن الأعين ، فركب القطاعُ الدهشة إذا لم يروا أثرا لبعيره ولا لبضاعته ، أما الباقون ففقدوا بضاعتهم وثيابهم . فلما رجعوا إلى أهلهم ، سألو الشيخ أن يبين لهم هذا السر . وقالوا « لقد دعونا الله فلم يستجب دعائنا ، ودعاك رجل فاختنفى عن أعين السرقة » قال الشيخ : « أما أنتم فقد دعوتم الله صورة ، ودعوته أنا حقيقة . فلو دعوتمونى ، فدعوت الله لكم ، لتقبل الله دعاءكم . وليس وراء دعائكم نجاح مادام صورة ولفظا ، لاتفقهون معناه » .

وبينا هو يصلى ذات ليلة إذ سمع صوتا يصيح : « ياأبا الحسن ! أتحب أن أخبر الناس خبر ماأعلم عنك ، حتى يقضوا عليك رجما بالحجارة ؟ » . فأجابه بقوله : « إلهى وسيدى ! أتحب أن أخبر الناس خبر ماأعلم عن رحمتك ، وما أدرك من فضلك ، حتى لايركع لك راعى فى صلاة ؟ » فقال

الصوت : « احفظ عليك شرك ، وسأحفظ على سرى » .
 قال الشيخ : « يارب لا ترسل إلى ملك الموت ، فلن أسلمه روحى .
 وكيف أسلمها إلى من لم يأخذها منه ؟ عنك أخذت روحى ولن أسلمها لأحد
 إلا إليك » .

* * *

وقال : « سيأتى ملك الموت ، بعد أن أنتقل ، ليقبض روح أحد أبنائى ،
 وسوف يشدد به ، فأمد يدي من تحت أطباق الثرى ، وأنزل رحمة الله على
 شفتيه » .

* * *

وقال : « لو أمرت السماء أن تتحرك لأطاعت ، ولو أمرت الشمس أن
 تقف لوقفت عن الجرى فى فلکها » .

* * *

وقال : « لست راهبا ، ولا زاهدا ، ولست متكلمًا ، ولا صوفيا . يارب !
 أنت واحد ، وأنا فى أحديثك واحد » .

* * *

وقال : « جمجمتى السموات ، وأقدامى تحت الأرض ، وكلتا يدي
 شرق وغرب » .

* * *

وقال : « من لم يصدق أننى سأبعث يوم النشور ، ولن يدخل الجنة إلا
 من أقوده إليها ، فلا يأت إلينا مسلما . ومنذ أخرجنى الله عن نفسى ، والجنة
 تطلبنى والنار ترهبنى . ولو أن الجنة والنار مرتا حيث أكون ، لفنيتا جميعا
 فنى ، بما تحويان من أناس » .

* * *

وقال : « كنت مستلقيا على ظهرى نائما ، فانبثق من ركن عرش الرحمن

شئ انصب فى فمى ، أحسست جلاوته فى باطنى » .

* * *

وقال : لو أن قطرات قلائل مما تحت بشرة الولى خرجت على شفثيه
لفزعت خلائق السموات والأرض » .

* * *

وقال : « لو أراد الأولياء لمنعوا بدعائهم السمك عن الانطلاق فى البحر ،
ولجعلوا الأرض تضطرب حتى يقول الناس إنه لزلزال » .

* * *

وقال : « لو انكشف حب الله عن قلوب أجبائه ، لملا الأرض
طوفانا ونارا » .

* * *

وقال : « من عاش مع ربه رأى كل مايرى ، وسمع كل مايسمع ، وعقل
كل مايعقل ، وعرف كل مايعرف » .

* * *

وقال : « فى لكل شئ مكان إلا مكان لنفسى » .

* * *

وقال : « الكرامات أول مراحل ألف فى الطريق إلى الله » .

* * *

وقال : « لا تطلبه حتى يطلبك . فإنك حين تجد من يطلبك تكون
أنت هو » .

* * *

وقال : « لا بد لك أن تموت وتحيا كل يوم ألف مرة ، حتى تناول الحياة
الخالدة » .

* * *

وقال : « حين تعطى الله شئك يعطيك الله شئيه » .

ولعله أن يكون عملاً لا ينتهى إن نحن عمدنا إلى تعداد الأنواع المتباينة للكرامات ، وإلى سوق الأمثلة عليها ، تلك الكرامات التى تروى عن حياة الأولياء المسلمين ؛ من مثل السير على الماء ، والطيران فى الهواء - مع راحلة أودونها - وإنزال المطر ، والظهور فى مواضع مختلفة فى آن واحد ؛ وإبراء المرضى بالنفث ، وإحياء الموتى ، والعلم بما سيقع ، والإخبار عنه قبل وقوعه ، والإخبار عما فى نفوس الغير ، وتحريك الأجسام دون واسطة ، وإصابة العاصى بالفالج ، أو قطع رأسه بكلمة أو إشارة ، ومخاطبة الحيوان والنبات ، وجعل التراب تبرًا ، أو أحجاراً كريمة ، وتفجير الماء ، والإتيان بالغذاء ، حيث لا غذاء ، وهلم جرا .

وهذه « الخوارق للعادة » - كما يسميها المسلم - تبدو عنده صحيحة غير منكورة ، فليس لدى المسلم فكرة ما عن القانون الطبيعى . ونحن نشعر أننا ملزمون أن نميز الظواهر المستحيلة ، التى لاتعقل ، من تلك التى نستطيع ان نجد لها نوعاً من التأويل الطبيعى . والآراء الحديثة عن التأثير العضوى « الفيزيقي » والشفاء بالدعاء ، والتلباثى ، والفراسة الصادقة ، والتنويم المغناطيسى ، وما أشبه ذلك ، قد فتحت لنا طريقاً واسعاً ، نتقدم منه إلى هذه « القارة المظلمة » فى العقل الشرقى ، ولن أتعب الموضوع أكثر مما تعقت ، وإن كان مليئاً بما يسر ويستثير .

واستطاعة الأولياء الإتيان بالكرامات تحل منزلة ثانوية ، أو دون الثانوية ، فى التعاليم الصوفية الراقية . والأهمية البالغة التى اتخذتها هذه الفكرة ، فى تصوف « جماعات الدراويش » وطرقهم ، ذلك التصوف ذو المفروض والرسوم والأشكال ، كانت علامة من أظهر العلامات على فساد أحوالها .

والكلمة التالية - وقد غيرت فيها تغييراً طفيفاً - تعطينا تلخيصاً وافياً عن الطريقة الجذبية ، التى يصل الدراويش بها إلى الاتحاد بالله .

لابد للمريد عند الصوفية ، أن يكون دائماً على ذكر لمرشده ، وهو موجهه الروحى ، وأن يستغرق عقله فيه ، بالتأمل والتفكير فيه دون انقطاع . ولابد للمرشد أن يكون درعه الواقى ، من جميع خطرات الإثم . وروح المرشد تقتفيه فى كل جهد يحاوله ، وتصحبه حيثما حل ، كالملك

الحافظ^(١) . يأخذ المريد نفسه بذلك . حتى يرى الشيخ في كل إنسان وفي كل شيء . ويصبح حاله حال الشيء يجذبه المغناطيس . وتسمى هذه حال « فناء النفس في الشيخ » . ويرى الشيخ في مرآة الصادقة ، الدرجة التي وصل إليها المريد ، ويعلم إن كانت روح المريد قد امتزجت بروحه أم لا . فإذا بلغ هذه المرتبة ، رقاها الشيخ إلى مرتبة التأثر الروحي « بالبير » - وهو مؤسس الطريقة وأعلى فرد فيها - ولا يستطيع المريد أن يرى « البير » إلا بمعونة الشيخ . وتسمى هذه حال « فناء النفس في البير » . وقد أصبح بذلك جزءاً لا ينفصل من « البير » ، يملك كل ما يملك « البير » من قدر روحية . وتصل به المرتبة الثالثة - بمعاونة الشيخ أيضاً - إلى النبي نفسه ، فيراه كذلك في كل شيء . وتسمى هذه حال « فناء النفس في النبي » . وتصل به المرتبة الرابعة إلى الله فيتحد بالله . ويراه في كل شيء^(٢) . والصورة الدقيقة الرائعة ، لهذه الطريقة التي وصفنا ، موجودة في قصة حياة « توكل بك » وهي مشهورة معروفة . وقد مر خلال هذه الرياضات جميعاً تحت إشراف « مؤلا شاه » وقصته أطول من أن تذكر بتمامها . وفوق ذلك فقد ترجمها الأستاذ « ماكدونالد Macdonald » في كتاب « الحياة والوضع الديني في الإسلام » وأنا أقدم من هذه الترجمة فذلكلة واحدة ، تصف المرحلة الأولى من المراحل الأربع التي ذكرناها آنفاً .

« فأجلسني أمامه ، وكان حواسي سكرى . ثم أمرني أن أستحضر هيئتي في نفسي . وبعد أن عصبت عيني ، سألتني أن أجعل ذهني كله منصرفاً إلى قلبي . فأطعته ؛ فانفتح قلبي بعد لحظة ، بفضل الله وبمعاونة الشيخ الروحية . رأيت حينئذ في باطني شيئاً مقلوباً كأنه الكأس . فلما اعتدل امتلأ باطني سعادة لا تتناهى . وقلت للشيخ : « هذه الصومعة ، حيث أجلس

(١) روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا ، يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل الذباب . ولو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين » .

الزمخشري : الكشف : في تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [سورة الطارق : آية ٤]

أمامك الساعة ، أراها ابتعثت ابتعاً صادقاً جديداً فى باطنى . وكأن « توكل بك » غيرى يجلس أمام مؤلاً شاه غيرك » قال الشيخ : « خيراً ! الصورة الأولى ، التى انكشفت لك هى صورة الشيخ » . ثم أمرنى أن أكشف عيني . فرأيت بياصرتى جالساً أمامى ثم أمرنى أن أعصيهما ثانية ، فأدركته ببصيرتى ، جالساً أمامى ، كحاله بياصرتى . فملأنى العجب والاستغراب . وصيحت به : « أيها الشيخ ! سواء على أنظر بياصرتى ، أم نظرت ببصيرتى فأنت الذى أراه دائماً » .

وهذا حادث من قبيل « التنويم المغناطيسى الذاتى Autohypnotism » شهدها ورآها « الجامى » الشاعر . قال :

اعتاد مولانا سعد الدين الكشغرى ، بعد قليل من « التوجه Concentration of thought » أن يظهر أمارات تدل على عدم الإدراك ، ومن جهل حاله ظنه غارقاً فى نومه ، فلما كان أول عهده برفقته ، حدث أن جلست أمامه فى المسجد الجامع ، فلما أته غيبوبته ، كما تعود ، ظننت أنه سينام ، وقلت له : إن أحببت أن تستريح حيناً فعلت » فضحك ، وقال : « إنك لاتعرف أن ذلك شئ غير النوم » .

والقصة التالية تواجهنا بمشاكل أعظم مما فى غيرها .

حدث مولانا نظام الدين الخاموش ، أن شيخه علاء الدين العطار أراد يوماً أن يزور الولي العظيم محمد بن على ^(١) الحكيم فى ترمذ . قال نظام الدين : « فلم أصحبه ، وبقيت بين أهلى ، ولكنى أفلحت بتوجهى إلى الولي العظيم ، وقصر فكرى عليه ، أن أستحضر ذاته الروحانية أمامى ، حتى أن شيخى حين وصل إلى المقام وجده خالياً ، ولا بد أنه قد أدرك ذلك ، فإنه حين رجع . جهد جهده أن يجذبني تحت سيطرته . فتوجهت وبذلت الجهد لأخلص منه . ولكنى كنت كالحمامة والشيخ كالبازي ، يطاردنى . فحيثما توجهت كان من ورائى دائماً ، فلما أعيتنى النجاة آخر الأمر ، احتسيت

(١) أبو عبد الله محمد بن على الترمذى لقي أبا تراب النخشبى ، وصحب يحيى

الجللاء ، وأحمد بن خضرويه ، وهو من كبار مشايخ خراسان ، له تصانيف مشهورة .

توجهت كان من ورائي دائما ، فلما أعتني النجاة آخر الأمر ، احتميت بالذات النورانية للنبي ﷺ وانحجبت في لألائها الذي لا يبلغ له آخر ؛ فلم يستطع الشيخ حينئذ أن يوقعني تحت سيطرته بعد ذلك ، ووقع في كرب . ولم يعلم أحد سواي سبب ذلك .

ويملك ابن علاء ، الشيخ « خواجه » حسن العطار قوة السيطرة هذه ؛ حتى ليستطيع أن يقذف الشيخ بالشخص في حال الغيوبة ، ويروضه على الفناء ، تلك المرتبة التي لا يصل إليها بعض الصوفية إلا في مناسبات نادرة ، وبعد إعنات طويل للنفس . وقد روى أن المريدين والزوار ، الذين نالوا شرف تقبيل يده ، كانوا دائما يقعون إلى الأرض مغشيا عليهم .

وقد اعتقدوا في بعض الأولياء القدرة على التشكل بالشكل الذي يريدونه . وأظهر هؤلاء « أبو عبد الله الموصلي » المشهور بقضيب البان قالوا : وكان قاضي الموصل يرى فيه زنديقا يستحق العقوبة . فرآه ذات يوم في أحد طرق المدينة ، يواجهه مقبلا صوبه ، فعزم على أن يقبض عليه ، ويرفع أمره إلى والي ليعاقبه . وبينما هو في ذلك ، إذا بقضيب البان قد اتخذ هيئة الأكراد ، فلما اقترب منه قليلا اتخذ هيئة أعراب البادية ، فلما اشتد قربه ، اتخذ هيئة شيخ من المتكلمين ، وصاح به : « أيها القاضي ! علام تريد أن تجر قضيب البان إلى الحاكم وتعاقبه ؟! » . فندم القاضي على عداوته للولي ، وصار واحدا من مريديه .

ودعني أسوق لك في النهاية مثالين مؤكدين ، عن طاعة الجمادات ، وتحريك الأجسام دون واسطة « Telekinisis » .

حكى عن أبي جعفر الأعور قال : « كنت عند ذي النون المصري ؛ فتذاكرنا حديث طاعة الأشياء للأولياء . فقال ذو النون : « من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور في أربع زوايا البيت ، ثم يرجع إلى مكانه ، فيفعل » قال : « فدار السرير في أربع زوايا البيت ، وعاد إلى مكانه » . وكان هناك شاب فأخذ يكي حتى مات في الوقت » ^(١) .

(١) الرسالة القشيرية : ص ٢١٧ س ٢٣ - ٢٧

وزار ابن سينا أبا الحسن الخرقاني ؛ فقام بينهما نقاش طويل عنيف ، وبعد حين أحس الولي - أبو الحسن الخرقاني - التعب ، وكان رجلاً أمياً ، فنهض . وقال لابن سينا : اعذرني ! فلا بد لي أن أذهب فأصلح سور الحديقة . وخرج يحمل معه فأساً . فلم يكذ يرقى الحائط حتى سقطت . فجرى ابن سينا ليلتقطها ، ولكن قبل أن يصل إليها ارتفعت الفأس بنفسها ، ورجعت إلى يد الشيخ . فملك العجب على ابن سينا نفسه ، وأفقده زمام أمرها . وظل على الاعتقاد المتين في الصوفية ، الذي تملكه منذ ذلك الحين ، حتى هجر - في آخر أيامه - الصوفية إلى الفلسفة .

وإني لعلّى يقين أن هذا الفصل لم يوف ذلك الموضوع العظيم حقه الذي يجب له . ولابد لمؤرخ الصوفية أن يعترف - وإن شق عليه ذلك - بالمكان الملحوظ الذي يحتله مذهب « الولاية » ، والتأثير العظيم الذي أملاه في نتائجه العملية ، كالخضوع المطلق لسلطان طائفة مجذوبة من الناس ، والاعتماد على فضائلهم ، والحج إلى قبورهم ، وتعظيم بقاياهم ، وحبس كل قدرة عقلية ، أو روحية على خدمتهم .

وإذا كان من المجازفة أن تعبد الله مستهدياً بصيرتك وحدك ، فإن من أشد المخاطرة أن تتطلبه ببصيرة غيرك . وقداسة الشيوخ ليس لها من جزاء . قرر كتاب الصوفية هذه الحقيقة ، في أسلوب بليغ . ولكني سأجتزئ بنقل بضع جمل من حياة علاء الدين العطار ، ذلك الولي الذي فشل - كما رأينا - في أن ينوم تلميذه تنويماً مغناطيسياً ، انتقاماً منه لهذه الخدعة التي خدعه بها .

يروى مترجم حياته عنه أنه قال : « لخير وأقوم أن تكون بجانب الله . من أن تكون بجانب خلق الله » . وكثيراً ما جرى على لسانه هذا الشعر :
إلام تعبد قبور الأولياء .

اشغل نفسك بأعمالهم تكن من الناجين .

الفصل السادس

حال الاتحاد

لقد أمكن أن نروى القصة إلى هنا .
ولكن مابقى مخبوءا . لا يمكن التعبير عنه بكلام .

* * *

ولو أنك حاولت شتى الطرق للتعبير عنه .
لأبت صفر اليدين ، ولظل السر حيث هو في غموضه .

* * *

أن في طوقك أن تمتطى صهوة جواد من الخيل إلى شاطئ
البحر .

فإذا جئت إلى البحر فلا بد لك من جواد من الخشب .

* * *

وجواد الخشب لا يرتجى منه نفع على اليابسة .
فهو أداة الراحلين في البحر .

* * *

وهو صامت ، ذلك الجواد من الخشب
صامت ، ذلك الذى يتخذ الناس وسيلة وعمادا في
البحر^(١) .

* * *

(١) جلال الدين الرومى : المثنوى : ترجمة مختصرة إلى الإنجليزية ، لهوين فيلد

لايستطيع أحد أن يقارب موضوع هذا الفصل - حال الصوفي الذي وصل إلى غاية رحلته - دون أن يحس أن كل الأوصاف الرمزية للاتحاد بالله ، والنظريات التي تدور حول طبيعة هذا الاتحاد ، ليست إلا خبط عشواء ، وخطباً بلبيل . فكيف إذا نستطيع أن نكون فكرة عن أمر ، أعلن الذين تمرّسوا به أنه فوق التعبير والتصوير ؟ وأستطيع أن أجيب على ذلك ، بأن الصعوبة عينها قد واجهتنا ، في معالجة مختلف الظواهر الصوفية ، وإن تكن هذه الظواهر أقل خطراً وأهون منزلة . فلم يمنع الشاعر نصحه بالصمت ، عن أن يبين أعمق أسرار الصوفية في مقدرة لاتجاري وحصافة لاتسامي .

وحال الاتحاد - أيما كانت العبارات التي توصف بها - هي غاية لطريق بسيطة ، تتحرر بها الروح شيئاً فشيئاً ، من كل ماهو غير رباني . وهي تختلف عن « النرفانا » . فالنرفانا زوال للشخصية لاغير ، وأما « الفناء » فهو تلاشي الصوفي عن وجوده الحسي . ويستلزم ذلك الفناء « البقاء » ، أو الاتحاد بالحياة الربانية . والغاية القصوى عند الصوفي المسلم ، في اختصار ، أن يصير ربانياً .

والحسين بن منصور الحلاج قد قُتل في بغداد ، في أوائل القرن العاشر الميلادي . ويبدو أن قتله قد أملتة دوافع سياسية ، ولكن ذلك ليس همنا . ولعله أن يكون بين الحشد ، الذي تجمع حول المصلوب قلّة ، تعتقد صدق ما قال عن نفسه ، وبقية شهدت ، راضية أو مجبذة ، عقوبة زنديق كافر . فلقد فاه بجملته ، إن عفا عنها الإسلام على وجه العموم ، فلن ينساها ، ذلك قوله « أنا الحق » ^(١) .

والبحوث التي ظهرت حديثاً للأستاذ « ماسينيون Luis Massignon » ^(٢) جعلت في الإمكان تبيان المعنى ، الذي ربطه الحلاج نفسه ، بتلك القولة الشهيرة . وأكدت على وجه التحديد أنها لاتتفق مع التأويلات السنية ، التي أولها

(١) الحلاج : كتاب الطواسين : ص ٥١

(٢) للأستاذ العالم الفاضل « لويس ماسينيون Luis Massignon » . بحوث قيمة في التصوف عامة ، وعن الحلاج خاصة ، ومن أمتع ماكتب عن الحلاج مؤلفه عنه « La Passion d'Al Hallaj » وهو يقع في مجلدين ضخمين . وكذلك « كتاب الطواسين » للحلاج ، الذي نشره في باريس سنة ١٩١٣ . انظر خاصة منه ص ١٢٩ - ١٤١

بها الصوفية المتأخرون ، الذين ينتمون إلى مدارس صوفية مختلفة . والإنسان - جريا مع الحلاج - هو في أصله ، وصفوة عنصره ، ربانى . فقد خلق الله آدم على صورته ^(١) ، ثم أبرز من ذاته تلك الصورة من حبه الخالد ، حتى يرى نفسه كمن ينظر في مرآة . ومن هنا أمر الملائكة بالسجود لآدم ^(٢) ، الذى تجسد فيه كما تجسد فى عيسى .

سبحان من أظهر ناسوته سِرَّ سنا لاهوته الشاقب
ثم بدا لخلقه ظاهرا فى صورة الأكل والشارب ^(٣)
وإذا كان « ناسوت » الله يشمل طبيعة الإنسان ، الروحى منها والجسدى ، فإن « لاهوته » لا يستطيع الاتحاد بهذه الطبيعة إلا عن طريق التجسد ، أو كما يقول الأستاذ ماسينيون ؛ عن طريق الروح القدس التى تتخذ مكانها حين تحل الروح الجسد ^(٤) . ومن هنا قال الحلاج فى بعض شعره :
مُزجَتْ رُوْحُكْ فى رُوْحى كما تمزج الخمرة بالماء الزلال

(١) روى الإمام أحمد فى مسنده ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم فى صورته وطوله ستون ذراعا ، ثم قال : اذهب ، فسلم على أولئك النفر - وهم نفر من الملائكة جلوس - فاستمع ما يجيئونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك .. إلخ » .

علاء الدين على المتقى بن حسام الهندى المتوفى سنة ٩٧٥ هـ : كنز العمال : ج ٣ ص ٢١٣

(٢) يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة : الآية ٣٤]

(٣) الحلاج : الطواسين : ص ١٣٠

(٤) لقد أصاب الأستاذ ماسينيون ، حين جعل « الروح القدس » عين « العقل الفاعل » و « العقل الفاعل » - جريا مع الاسكندر الأفردويسى - ليس جزءا من قدرة أرواحنا ، ولكنه يأتينا من خارج . انظر فى ذلك :

Inge: Christian Mysticism. PP, 360 - 361

ويمكن أن يقارن مذهب الحلاج بمذهبه « تاولر Tauler » و « رويسبرويك Ruysbroeck » ، وبغيرهما من المذاهب التى تعالج ظهور « الله » فى الروح .

فإذا مسك شئ مسنى فإذا أنت أنا فى كل حال^(١)

ويقول :

أنا من أهوى ؛ ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا^(٢)

وهذا المذهب فى التأله الشخصى ؛ على الشكل الخاص الذى طبعه به
الحلاج ؛ بينه وبين المذهب المسيحى الأساسى نسب واضح . ولذا كان هذا
المذهب ، عند المسلمين ، كفرا من شر أنواع الكفر . وقد قيض الله له أن
يعيش ؛ دون تغيير فيه بين أتباعه الأقربين . والحلوليون ، وهم الذين يقولون
بالتجسيد ، يستوى الصوفية - على وجه العموم - وأهل السنة فى نبذهم أشد
النبذ . والتشنيع عليهم .

والصوفية ، وإن رموا الحلول بالعظائم ، إلا أنهم مع ذلك قد بذلوا الجهد فى
مباعدة الحلاج عن أن يوصم بالقول به . وقد اتخذوا لذلك خطوطا ثلاثة يدافعون
منها :

فأما أولها . فإن الحلاج لم يرتكب إثما ضد « الحق » . ولكنه عوقب ، وكان
عقابه جزاء وفاقا ، لارتكابه كبيرة ضد « الشرع » . لقد خان ربه بافشائه السر
الأعظم لكل من هب ودب . وكان عليه أن يقصره على المختارين .
وأما ثانيها : فإن الحلاج قد قال ذلك تحت تأثير نشوة الجذب . وقد ظن أنه
متحد بالذات الإلهية . ولم يتحد فى الحقيقة بغير صفة من صفاتها الربانية .
وأما ثالثها : فإن الحلاج أراد أن يعلن أن ليس هناك افتراق أصيل ، أو انفصال
ظاهر بين الخلق والحق ؛ من حيث إن الوجدانية شاملة للوجود كله . فالرجل
الذى يفنى أصالة عن نفسه الظاهرية يبقى فى نفسه الحقيقة وهى « الله » .

(١) الطواسين : ص ١٣٤ س ١٦ ، ١٧

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٤ س ١ ، ٢

ليس فى هذه العظمة « أنا » ولا « نحن » ولا « أنت » .
 « فأنا » و « نحن » و « أنت » شئ واحد .

وليس الحلاج هو الذى صاح « أنا الحق » ولكنه الله نفسه ، تكلم بلسان
 الحلاج الذى فئت نفسه ؛ كما تكلم إلى موسى بلسان الشجرة ^(١) التى اشتعلت
 نارا .

وهذا التأويل الأخير ، الذى رد قول الحلاج « أنا الحق » إلى « مسلمة بديهية
 اتحادية Monistic Axiom » ارتضاها أكثر الصوفية على أنها تمثل المذهب
 الحلاجى الصحيح .

ويصف جلال الدين الرومى ، فى أنشودة بديعة ، النور الأحدى وكيف سطع
 فى آلاف مؤلفة من الأشكال على العالم كله ؛ والذات الأحدية ، وكيف غشت
 نفسها ، من جيل إلى جيل ، ثياب الأنبياء والأولياء ، الذين هم شهودها على
 الخلق ؛ وهى بعد كما هى لم يطرأ عليها تبديل .
 يتبدى الجمال الخاطف كل لحظة
 فى صورة مختلفة فيستهوى الأرواح ويغيب

يتخذ هذا المحبوب فى كل حين ثوبا جديدا
 آونة فتى غرانقا . وآونة رجلا مكتملا

(١) يقول الله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي
 آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أَحَدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ
 فَلَاخَلَّعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾

[سورة طه : الآيات ٩ - ١٣]

وهو حيناً غائص وسط صلصال الفاخوري
الروح غائصة كالغواص في البحر

* * *

ينتصب تَوًّا من أعماق الحمأة التي صاغته وأنضجته
فيتبدى في العالم

* * *

فيصير نُوحًا يمتلئ العالم طوفانا بعد دعوته
بيننا يمتطى سفينته

* * *

ثم يصير ابراهيم يتبدى وسط النيران
التي تنقلب له بَرْدًا وسلامًا
يضرب في الأرض حيناً يسرى عن نفسه .

* * *

ثم يصير عيسى يرفع إلى السماء فيقدس الله
وعلى الجملة فهو الذي جاء . وهو الذي ذهب . في كل
جيل شهادته

* * *

حتى تبدى آخرًا في صورة عربي فملك العالم

* * *

من هذا الحَوَّل ؟ وما حقيقة هذا التحول ؟

* * *

لقد صار ضياء القلوب المحبوب مُهَنَّدًا في يد علي
وأضحى هذا المُهَنَّد بتأثر زمانه

* * *

لا . بل هو الذي تبدى في ثياب البشر فصاح « أنا الحق »

وهذا الذى رفع على المشنقة ليس هو المنصور^(١)
وإن ظن الحمقى أنه المنصور

لم ينطق جلال الدين الرومى بالكفر
ولن ينطق . فلا ترموه بالكفران
فمن يزعم غيره بالكفر فهو كافر
هو مع الذين قضى الله عليهم النار .

وكان من الطبيعى أن تصدم فكرة « الرجل الإلهى God Man » الشعور العام
صدمة عنيفة فى مختلف بقاع العالم الإسلامى . اللهم إلا فى غربى آسيا
وأوسطها . حيث كان رعايا أكاسرة فارس يرون فيهم آلهة وحيث استقرت
مذاهب « التجسيد Incarnation » و « التشبيه Anthropomorphism » و « التناسخ
Metempsychosis » .

وقد نطق العلاج بهذه العبارة ، فى أسلوب لا يستطيع معه أى لون من ألوان
الصوفية ، يدعى أنه إسلامى ، أن يحتملها ، بله أن ينسبها إلى نفسه . فإن فى
تأكيد امتزاج^(٢) الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية ، منافاة أصيلة لقاعدة الوحدة
التي قام عليها الإسلام . وتاريخ الصوفية فى عهودها الأخيرة ، يبين التآلة
« Deification » ، وكيف صار مع الاتحاد « Unification » شيئا واحدا . فإن
النقيضين ، الله والإنسان ، قد انصهرا فى بوتقة نظرية الاتحاد ، التي بينتها من
قبل .

وليس هناك وجود حقيقى منفصل عن الله . والإنسان « فيض Emanation » ،

(١) كثير ما يدعى العلاج (منصورا) . والحق أن ذلك اسم والده .

(٢) لم يفهم العلاج « الحلول » فى هذا المعنى . « انظر : ماسينيون : الطواسين : ص
١٩٩ » . وإن كانت الآيات التي ذكرتها للعلاج ، فيما سبق ، تتفق فيما اعتقد مع ما يذهب
إليه (إيكارت Ekhart) - فى قوله : لا يستطيع أحد أن يقول (أنا) على الحقيقة إلا الله وحده
- من أن الشخصية التي بطن فيها الدائم ، هي نفسها جزء من الديمومة .

أو انعكاس لمثال الوجود المطلق . وما نحسبه شخصية ، هو فى حقيقة الأمر عدم . ولا تستطيع هذه الشخصية اتصالاً أو انفصالاً ، لأنه لا وجود لها ؛ فالإنسان هو الله ، ولكن مع وجود الفارق . فالدائم والفانى - كما يقول ابن عربى - وجهان للواحد ، يكمل أحدهما صاحبه ، ولا بد من أحدهما للآخر . والخلق ظهور مشهود للحق ، والإنسان سر الله مكشوفاً مبيئاً فى خلقه . ولكن لما كان الإنسان لا يستطيع أن يدرك كل ما يتطلب الإدراك ، من تلقاء نفسه ، لأن لعقله حدوداً لا يعدوها ، فهو لا يعبر إلا عن جزء من العقل الإلهى ، وليس له أن يقول : « أنا الحق » فليس هو « الحق » ولكنه « حق » ^(١) .

وسوف ترى أن غيره من الصوفية ، كجلال الدين الرومى ، يغفلون هذه التفرقة القاسية ، فى لحظات انجذابهم ، مهما كلفهم ذلك .

والقول بأن فى تحقيق الصوفى ، لفناء نفسه الذاتية ، تحقيق لأحدثه الأساسية بالله ، ذلك القول يلخص النظرية الإسلامية عن « التأله » فى عبارات ، لعل القراء أن يكونوا قد أحاطوا بها علماً . وسأجهد جهدى فى تبيان أدق المعانى التى يمكن أن تنسب إلى تلك النظرية ، مرة فى عباراتى ، ومرة فى عبارات موضحة أقتطفها من المؤلفين المختلفين .

وقد فصلت الدرجات المختلفة للفناء فيما سبق . وأعلى درجات الفناء - وهى الفناء فى الذات الإلهية - قد وصفها أدق وصف « النفرى » ، الذى استبدل « الفناء » . و « الفانى » « بالوقفه والواقف » ؛ يعنى بالوقفه الإنقطاع عن « الطلب » وبالواقف المنقطع عن « الطلب » لفنائه فى المطلوب .

وهذه بعض الأصول الرئيسية التى ذكرت فى المتن وفى الشرح :
الوقفه : نورية تطمس الخواطر المظلمة عن « الغيرية » ^(٢) ، كما يطمس

(١) يقول الحلاج :

أنا سر الحق ، ما الحق أنا بل أنا حق ، ففرق بيننا
أنا عين الله فى الأشياء ، فهل ظاهر فى الكون إلا عيننا !؟

الطوايسين : ص ١٨٤

(٢) المواقف : ص ١٠ س ٤

النور الظلام . وترد قيم الظواهر عن الموجودات جميعًا إلى قيم الحقائق عنها . ومن هنا يستعلى « الواقف » على الزمان والمكان . « دخل الواقف كل بيت فما وسعه ، وشرب من كل مشرب فما روى ، فأفضى إلى وأنا قراره وعندى موقفه » ^(١) . ومعنى ذلك أنه قد أدرك جميع الصفات الربانية ، وتلبس بكل الرياضات الصوفية ، فلم يقنع بالأسماء دون المسمى ، ولا بالصفات دون الموصوف ، ولكنه طلبه ، وتفكر في ذات الله فرآه بتشخصه في ذاته . فلا يدعو ، لأن الدعاء يكون من الإنسان لله ، وليس غير الله في « الوقفة » أحد . والواقف لا يدع وراءه وارثًا غير الله ^(٢) . وإذا ذهب الوقفة من عقله ، أضحي نورًا كله ^(٣) . فتناؤه على الله ثناء من الله نفسه ، ومعرفته هي عين معرفة الله ، الذي يرى نفسه واحدًا ، كما كان من قبل ^(٤) .

ولا أرانا في حاجة إلى الكشف عن هذا « التجوهر Essentialistion » ، أو أن شئت « التبدل Substitution » ، و « التحول Transmutation » . وكيف يتم ، فذلك لغز الصوفية وسرها . إنه لعمل رائع ، صاغه في المخلوق الخالق ، الذي لاتشوب طبيعته أدنى شائبة مما يكون للمخلوقين .

ولا يستلزم هذا التجوهر ، كما ذكرت من قبل ، « حلول » الذات الإلهية ، ولا « اتحاد » الطبيعة البشرية بالطبيعة الإلهية ، أيًا ما كان تصورنا لهذا « التجوهر » . وكلا هذين المذهبين - الحلول والاتحاد - مقيت كربه . وقد نقدهما أبو نصر السراج في كتاب اللمع ، في عبارتين ، يقول في الأولى منهما : « وقد غلظت جماعة من البغداديين ، في قولهم : إنهم عند فنائهم عن أوصافهم ، دخلوا في أوصاف الحق . وقد أضافوا أنفسهم ، بجهلهم ، إلى معنى يؤديهم ذلك إلى الحلول ، أو إلى مقالة النصارى في المسيح عليه السلام . ومن زعم أنه سمع عن بعض المتقدمين ، أو وجد في كلامه أنه قال - في معنى الفناء

(١) المصدر نفسه : ص ١٠ س ٧ ، ٨

(٢) الواقف : ص ١٤ س ٦

(٣) المصدر نفسه : ص ١٥ س ١٤

(٤) المصدر نفسه : ص ١٥ س ١١ ، ص ١٦ س ١٠

عن الأوصاف ، والدخول فى أوصاف الحق - فالمعنى الصحيح من ذلك أن الإرادة للعبد ، وهى من عند الله عطية . ومعنى خروج العبد من أوصافه ، والدخول فى أوصاف الحق ، خروجه من إرادته ودخوله فى إرادة الحق . بمعنى أن يعلم أن الإرادات هى عطية من الله ، وبمشيئته شاء ، وبفضله جعل له مايعطيه ، وقطعه عن رؤية نفسه ، حتى ينقطع بكليته إلى الله تعالى . وذلك منزل من منازل أهل التوحيد . وأما الذين غلطوا فى هذا المعنى ، إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم ، حتى ظنوا أن أوصاف الحق هى الحق ؛ وهذا كله كفر ، لأن الله تعالى لا يحل فى القلوب ، ولكن يحل فى القلوب الإيمان به ، والتوحيد له والتعظيم لذكره » ^(١)

وقد استخدم فى الثانية دليلا مماثلا للدليل الذى سبق فى الفقرة الأولى ، ليدحض به مذهب « الاتحاد » يقول :

« فمنهم من ترك الطعام والشراب ، وتوهم أن البشرية هى القلب ، والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها ، فيجوز أن يكون موصوفا بصفات الألاهية . ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالة ، أن تفرق بين البشرية ، وبين أخلاق البشرية . لأن البشرية لاتزول عن البشر ، كما أن لون السواد لايزول عن الأسود ؛ ولالون البياض عن الأبيض ، وأخلاق البشرية تبدل وتغير ، بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق . وصفات البشرية ليست هى عين البشرية . والذى أشار إلى الفناء أراد به فناء رؤية الأعمال والطاعات ، ببقاء رؤية العبد لقيام الحق للعبد بذلك » ^(٢) .

والهجويرى يرمى بالغموض والإبهام ، القول بأن « الفناء » هو فقدان الذات ، وهلاك مادة الجسد ، وأن « البقاء » معناه « حلول » الله فى الإنسان ، ولكن الفناء الحق عن أى شئ - كما يقول - يدل على إدراك نقصانه ، وانعدام الرغبة فيه . فمن « فنى » عن إرادته الفانية « بقى » فى إرادة الله الباقية . أما الصفات فلا تصير ألبتة صفات ربانية ، ولا تتحول عن أصلها :

« قوة النار تقلب كل شئ يقع فيها إلى صفتها ، ولا ريب أن قوة إرادة الله

(١) اللمع : ص ٤٣٣ س ٦ - ١٨

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٣٧ س ٧ - ١٥

أعظم من قوة النار . ومع ذلك فالنار تؤثر على صفة الحديد ، دون أن تغير طبيعته ، لأن الحديد لا يصير ناراً أصالة » ويعرف الهجویری « الجمع Union » . في موضع آخر من كتابه بأنه : « توجه الفكر إلى المطلوب ، وقصره عليه . وهكذا كان شأن مجنون لیلی - أورلندو ^(١) الإسلام - وجه فكره إلى لیلی ، وقصره عليها ، يراها هي في كل شيء ، ويرى فيها كل شيء . وقد جاء بعضهم إلى صومعة أبي يزيد البسطامي ، وسأل : « أهنا أبو يزيد ؟ » فأجابه « أهنا أحد غير الله ؟ » . والأصل في هذه الأحوال جميعاً واحد . يقول :

« قسم الله حبه أجزاءً ، ووهب كل واحد من أحبابه ، فضلاً خالصاً منه ، جزءاً على قدر وجدته بربه ، ثم أرسل على هذا الجزء أغشية الجسدانية ، والطبيعة البشرية ، والمزاج ، والنفس ، ليغير عمل هذا الجزء ، من الحب القوى ، جميع تلك العناصر التي أضيفت إليه ، حتى تصير طينة الحب حبا خالصاً ، وأعماله ونظراته ملك يد الحب . وتسمى هذه الحال ، حال « الجمع » ، سواء عند الذين يعتبرون الإدراك الباطن أو التعبير الظاهر » .

ثم يقتبس عن الحلاج قوله :

تباركت مشيئتک یاربى وسیدی
تبارکت مشيئتک یاقصدى ومرادى
یا ذات وجودى وغایة رغبتى
یا حدیثى وإیمائى ورمزى
یا کل کللى ، یا سمعى ویا بصرى
یا جمیعى ، وعنصرى وأجزائى .

الصوفى المجذوب ، الذى تجاوز وهم السيد والمسود ، والرب والمربوب ، إلى نطاق الأحدية ، يستطيع أن ينكر أنه شيء ، وأن يقول إنه كل شيء . وأسوق

(١) يلمع بذلك إلى قصة شهيرة ، هي قصة « أورلندو الغاضب Orlando Furioso » ألفها أديب إيطالى كبير ، هو « لدفيكو أريوستو Lodvico Ariosto » . ولد فى « رجبو » بجومبارديا ، فى ٥ سبتمبر سنة ١٤٧٤ م ، وتوفى فى يونيو سنة ١٥٣٣ م .

وتعتبر هذه القصة خير ما ألف فى الآداب الأوربية عامة ، من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر . وقد ترجمت إلى مختلف اللغات الحية فى العالم .

لك مثالا عن « الإنكار » . إنكار أنك شئ - مقطوعة من الشعر المطلق في أصله
 الفارسي ، لجلال الدين الرومي ، يقول جلال الدين :
 ياعجبا ! أنا عند نفسي مجهول
 فبالله ماذا أفعل الآن ؟

لا أعظم الصليب ، ولا الهلال .
 ولست مجوسيا ، ولا يهوديا .

لا الشرق ولا الغرب ، لا البر ولا البحر لى دارا
 وليس بينى وبين الجنة أو الملائكة نسبا .

لست مصنوعا من النار ولا من الزبد ، ولم يسوّ خلقى
 من التراب ، ولا من قطرات الندى . لم أولد فى
 الصين بعيدا . ولا فى سقسين أو البلغار قريبا

ما ريت فى الهند ، حيث الأنهار الخمسة ، ولا فى
 العراق أو خراسان . ولا أقيم فى هذه الأرض
 أو تلك ، ولا أدخل النار أو الجنة . ولم أهبط من
 (عدن) حيث رضوان . ولا أنتسب إلى آدم

فى مكان من وراء « المكان » ، فى مخرم حيث لا ظل للطراق
 تنزهت روحى واستعلت ، فعشقت فى روح محبوبى الواحد من
 جديد

وأما هذا الشعر الذى يأتى ، فإنه يمثل « الإثبات والإيجاب » حيث تقول إنك
 كل شئ . يقول جلال الدين :

إن يكن فى الدنيا محب - أيها المسلمون - فأنا ذلك المحب
 إن يكن فى الدنيا مؤمن ، أو كافر ، أو راهب نصرانى ، فأنا هو

أنا ثمالة الكأس ، والساقى : أنا المغنى ، والرباب ، واللحن
 أنا القنديل ، والمحجوب . أنا الشراب ، ونشوة المخمور

أنا الثنتان وسبعون فرقة ومذهبا فى الدنيا ، وأقسم بربى أنها ليست شيئا غيرى

أتعرف ما الأرض والهواء ؟ والنار والماء ؟
 أنا الأرض والهواء ، والنار والماء .
 لا بل الجسد والروح كذلك .

الحق والباطل ، والخير والشر ، واليسر والعسر .
 منذ كانت إلى أن تنتهى .
 والمعرفة والعلم ، والزهد والتقوى والإيمان ، أنا كلها

بل أنا دون ريب نار جهنم ، بألسنتها الملتهبة
 بل أنا الفردوس وغدْن ، وما فيهما من الحور العين .

أنا هذه الأرض والسموات بكل ما حوت
 من إنس وجن وملائكة .

وما نطق به جلال الدين فى لحظة من لحظات جذبه ، وصفه « هنرى مور
 Henry More » على أنه رياضة سابقة فى قوله :

« ما أروعها حالا وما أجملها ! حين تحيا الروح فى الله . فتدفع حياة الله الروح فى أرجاء السموات والأرض ، وتتحد بها ، وبعد قليل تحس نفسها حية ، قد انتظمت حياتها العالم كله ، فترى المتعدد واحداً ، وترى نفسها ، إن كان ثمة نفس لها ، جزءاً من الواحد .

* * *

والاستغراق فى نشوة « الفناء » ، غاية المطاف ، عند بعض الصوفية . فلا تقوم بينهم - إن بلغوها - وبين العالم صلة ما ، ولا يبقى فيهم من أنفسهم شئ . فهم قد ماتوا من حيث إنهم أفراد . وهم غرقى فى « التوحد » ، لا يدرون ما الشريعة ولا الدين ، ولا يعرفون رسماً من رسوم كون الظواهر ، ولكن هؤلاء العابدين ، المشغوفين بربهم ، الذين لا يعود إليهم صحوهم أبداً ، قد وقعوا دون أعلى درجات التحقق ، ولم يلبسوها . فالحلقة المفرغة للتأله ، لا بد أن تجمع الوجوه الظاهرة والباطنة للألوهية ، الواحد والكثرة ، والحقيقة والشريعة . فليس حسبك أن تفر من جميع ما هو آدمى ، بل لا بد لك من الولوج إلى الحياة السرمدية لله ، بارئ الكون ، كما ظهرت فى مصنوعاته . والبقاء فى الله ، بعد الفناء عن النفس علامة « الإنسان الكامل » الذى لا يرحل إلى الله فحسب - وأعنى بالرحلة إلى الله النفاذ من التعدد إلى التفرد ، ومن الكثرة إلى التوحد - ولكنه يحيا فى الله ، ويحيا بالله ؛ على معنى أن يرجع بربه - ولم يزل فى حال الإتحاد - إلى عالم الظواهر الذى عنه نزع ، ويظهر فى الكثرة التفرد ، وفى التعدد التوحد . وفى هذا النزول يجعل الشريعة رداءه الظاهر .

والحقيقة رداءه الباطن .

لأنه ينزل الحقيقة ، ويبينها للناس ، وهو مع ذلك يؤدى ما طولب به من أمور الشريعة . ونستطيع أن نقول عن ذلك « الإنسان الكامل » ما قاله متصوف مسيحي عظيم :

« إنه يرحل إلى الله بحبه الباطن ، فى العمل الصالح الدائم . وهو يدخل فى ربه بسبب ميله المثمر إلى الراحة الدائمة . وهو يحيا فى ربه ، ولكنه مع ذلك يتجه صوب الخليقة ، فى روح من الحب لها جميعاً ، وفى فضائل الأخلاق ، وصوالح

الأعمال . وهذه أرفع درجات الحياة الروحية ^(١) .

ويصف عفيف الدين التلمساني ^(٢) ، في شرحه على مواقف النفري ، مراحل صوفية أربعاً .

فأما الأولى فتبدأ بالمعرفة وتنتهى بالفناء الكامل .

وأما الثانية : فتبدأ حيث يخلف البقاء الفناء ، ومن وصل إلى هذه المرتبة ، رحل في الحق ، بالحق ، إلى الحق ، حتى يصير هو حقاً . ولا يزال يرحل حتى يصل إلى مرتبة القطب ^(٣) التي هي مرتبة الإنسانية الكاملة ، ويصير مركز العالم الروحي ، حتى أن كل نقطة أو حد يصل إليها الأناسي ، متساوية في البعد عن مرتبته ، قرب ذلك الحد أو بعد . إذ أن جميع المراتب تدور حول مرتبته ؛ ولا فرق عند القطب بين القرب والبعد . ومن حاز هذه المرتبة الرفيعة ، كان العلم ، والمعرفة ، والفناء ، أنهاراً من محيطه ، يمد بها من يشاء . وله أن يهدى

Ruysproeck. Quoted in E., Underhills' Introduction to Mysticism. P., (١)

(٢) عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن علي التلمساني ، الأديب الشاعر ، قيل عنه أنه « أحد زنادقة الصوفية » أما شعره : ففي الذروة العليا ، من حيث البلاغة ، لا من حيث الانحدار ، كما يقول ابن العماد الحنبلي . له عدة تصانيف منها : « شرح أسماء الله الحسنى » و « شرح مواقف النفري » و « شرح الفصوص » وغير ذلك . وله ديوان شعر ، وتوفي خامس رجب ، سنة تسعين وستمائة ، وله ثلاثون سنة .

ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب : ج ٥ ص ٤١٢ ، ٤١٣

(٣) يقول الجرجاني : « القطب - وقد يسمى غوثاً باعتبار التجاء الملهوف إليه - وهو عبارة عن الواحد ، الذي هو موضع نظر الله في كل زمان . أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه . وهو يسرى في الكون ، وأعيانه الظاهرة والباطنة ، سريان الروح في الجسد ، بيده قسطاس الفيض الأعم وزنه . يتبع علمه ، وعلمه يتبع علم الحق وعلم الحق يتبع الماهيات الغير المجعولة . فهو فيفيض روح الحياة ، على الكون الأعلى والأسفل . وهو على قلب إسرافيل ، من حيث حصته الملكية ، الحاملة مسألة الحياة والإحساس ، لا من حيث إنسانيته . وحكم جبريل فيه ، كحكم النفس الناطقة في النشأة الإنسانية . وحكم ميكائيل فيه كحكم القوة الجاذبة فيها . وحكم عزرائيل فيه كحكم القوة الواقعة فيها » .

الجرجاني : التعريفات : ص ١١٩

الناس إلى سبيل ربه ، لا يطلب على ذلك إذناً من أحد . وقبل أن يوصد باب النبوة ^(١) كان يدعى نبيا ، فأما في أيامنا تلك فإنه يدعى شيخا . هو هادي الأرواح . وهو غوث لمن يرجو معونته ، فقد جمع في نفسه جميع الأحوال الجبليّة للنوع البشرى . وهو كسائق العيس ، يسع بكل إلى أهله .

فأما في المرتبة الثالثة فإن الإنسان الكامل يجعل همه منصرفا إلى خلق الله إما على أنه نبي ، وإما على أنه شيخ . ويكشف عن نفسه لهؤلاء الذين فشلوا في التحرر من أوصافهم الترايية ، كل بحسب درجته . فهو يبدو لصاحب الدين متدينا ؛ وللمتأمل ، الذي لم يحظ بعد بتمام التأمل ، عارفا ؛ وللعارف ، الذي فنى عن ذاتيته ، واقفا ؛ ويبدو للواقف قطبا . فهو أفق كل مرتبة صوفية ، ودونه نهاية حلقات الرياضة ، التي تعرفها كل جماعة من السالكين .

والمرتبة الرابعة ترتبط عادة بالموت الحسى . وقد أشار النبي إليها ، حين قال ، وهو على فراش الموت : « اللهم فى الرفيق الأعلى » ^(٢) .

وإذا نحن بنينا حكما على هذه العبارات الغامضة ، التي وصف بها عفيف الدين هذه المرتبة ، فإن الإنسان الكامل - وقد أسبغت عليه جميع الصفات الربانية - يصبح ، كما يقولون ، المرأة التي يكشف الله فيها عن نفسه لنفسه . يقول ابن عربى .

أن تبدى حبيبي بأى عين أراه ؟!
بعينه لا بعيني فليس غير يراه

(١) وذلك قبل زمن محمد ﷺ ، فهو خاتم النبيين .

(٢) يروى البخارى بسنده ، عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ كان يقول ، وهو صحيح : « إنه لم يقبض نبي قط ، حتى يرى مقعده من الجنة ، ثم يحيا - أو يخير - » فلما اشتكى ، وحضره القبض ، ورأسه على فخذ عائشة ، غشى عليه ، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ، ثم قال : « اللهم فى الرفيق الأعلى ! » . فقلت : « إذا لا يجاورنا - أو لا يختارنا » . فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح .

البخارى : باب مرض النبي ﷺ : ج ٦ ص ١٠ - بولاق سنة ١٣١٤ هـ .

وما بالروح من نور ، وتلك العين التي بها ترى ، وما تراه ، يضحى شيئاً واحداً . وبعد . فقد اقتفينا أثر الصوفى ، فى بحثه عن الحقيقة ، إلى منزلة بطلت معها لغة الكلام . وليست بعدُ لينة مطردة ، كما تبدت فى هذه الصفحات ، وما أشبه الخُمار ، يصيب الشارب بعد السكر ، بما يعاينه السالك من أهوال ، تعتصره اعتصاراً ، وتقع له بين مرتبة السكر العليا ، ومرتبته الدنيا .

وأوصاف هذه الرياضة - أو ليلة الروح الليلاء ، كما يدعوها المؤلفون من المتصوفين المسيحيين - يمكن أن توجد فى ترجمة حياة أى ولى من الأولياء المسلمين . فالجامى ، فى نفحات الأنس ، يروى أن درويشاً من مريدى شهاب الدين السهروردى ^(١) قد أفيض عليه جذب فى تأمل « التوحيد » ، وفى حال « الفناء » . وذات يوم ، جعل ييكى وينتحب ، فلما سأله الشيخ شهاب الدين عما ييكى ، قال : « ولى ! حجبنى « التعدد » عن إدراك « التوحد » فأنا مطرود ، ولا أستطيع أن أجد مقامى السابق » فأهمه الشيخ أن تلك بوادر مقام البقاء ؛ وأن ماهو فيه أعلى مما خلفه من قبل .

ولكن هل تبقى الشخصية فى الاتحاد النهائى بالله ؟. إن عنيينا بالشخصية الوجود المدرك - متميزاً عن الله ، وإن لم يكن منفصلاً عنه - فإن غالبية الواصلين من الصوفية يقولون : لا . فكما أن قطرة المطر تسقط فى المحيط ، فلا يقال إنها فنية ، بل ليس لها وجود منفصل ، فكذلك الروح المتجوهرة لا يمكن تمييزها من الألوهية الشاملة .

ومن الحق أن الصوفية ، حين يعبرون عن اتحادهم ، فى عبارات الحب والزواج ، لا يستبعدون فكرة الشخصية ، ولا يتأتى لهم ذلك ، لو أرادوه . وليس

(١) شهاب الدين ، يحيى بن حبش أميرك ، السهروردى المقتول . أحد أذكىاء بنى آدم . كان رأساً فى معرفة علوم الأوائل ، بارعاً فى علم الكلام ، مناظراً محجاجاً ، متزهداً زهداً مَزْدَكَةً وفراغاً ، مزدرياً للعلماء ، مستهزئاً ، رقيق الدين . قدم حلب واشتهر اسمه ، ثم رُمى بالزندقة ، ومات فى ظروف غامضة سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وهو صاحب « هياكل النور » . وقد نشرت له جمعية المستشرقين الألمانية ، فى الأستانة ، مجموعة رسائل نفيسة . انظر عنه .

من الضروري ، أن تكون هذه العبارات المجازية ، على غير وفاق مع مذهب «وحدة الوجود» ، الذى لا يرضى عن وجود أى تفريق أو تمييز . فالاتحاد بروح العالم هو أسمى فضل متصور للأرواح ، التى تتبادل الحب بينها ، فى هذه الدنيا . يقول جلال الدين الرومى .

ما أبدعها لحظة ! حين جلسنا فى القصر ، أنا وأنت
رسمان ، وجسدان ، ولكن روح واحدة ، أنا وأنت

* * *

فألوان الروض ، وصداح الطير سيخلد
حين نلج الروض ، أنا وأنت

* * *

وستطل علينا نجوم السماء
وسنريهم القمر عينه ، أنا وأنت

* * *

أنا وأنت تمازجنا فى جذبنا ، بعد أن فنيت الشخص
خلصنا من تافه القول ، وامتلانا سرورا ، أنا وأنت

* * *

فما فى السماء ، من طيور براقه الريش ، سوف تأكل أفئدتها حسدا لنا
حيث نضحك ملء أفئدتنا . أنا وأنت

* * *

ومن أعجب العجب أننا - أنا وأنت - ونحن جالسان فى هذا الركن
جالسان كذلك فى العراق وخراسان ، أنا وأنت

* * *

ولعله يبدو غريبا على أنانيتنا ، معشر الغريبين - أن يشعل منظر المشاركة ،
فى خلود الروح الإنسانية ، الجامع الشامل ، فى الصوفى حماسا عميقا غالبا

كحماس أشد المؤمنين باستمرار الحياة الشخصية بعد الموت . وجلال الدين الرومى - بعد أن وصف تطور الإنسان فى عالم المادة ، وتَوَقَّع نموه المطرد فى عالم الروح - جأر بدعاء خالص ، من ذات قلبه . ولم دعا ؟ - لفناء النفس فى محيط الربوبية المتلاطم .

مَتُّ معدنًا وصِرْتُ نباتًا
ومَتُّ نباتًا ونهضتُ حيوانًا
ومَتُّ حيوانًا وكنتُ إنسانًا

* * *

ولم أخاف ؟ ومتى انتضى الموت ؟
سوف يموت منى الإنسان ، لأخلق مع
الملائكة المقربين . بل سَأدع الملائكة

* * *

وكل شئ خلا الله هالك ، فإذا ضحيت بروح الملك
فسأصير إلى مالا يقدر فكر أن يتصور

* * *

ويحى ! أفننى ! فإن الفناء
يصيح فى ألحان قيثاره الخلود :
« إليه سوف نعود »

* * *

